حسين المناصرة

زرقاء اليمامة والتنفس حلمًا

وجهي وزرقاء اليمامة

قصص قصيرة

التنفس حلماً

ق.ق.ج

زرقاء اليمامة
والتنفس حلماً

مجموعتان قصصيتان

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

واقبلوا فائق الاحترام.

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٧/٣٢٤٣)

٨١٣.٩
مناصرة ، حسين
زرقاء اليمامة والتنفس حلما / حسين عبدالله مناصرة.-
عمان : دار فضاءات، ٢٠٠٩
( )ص.
ر.أ. : ٣٢٤٣/ ٧ / ٢٠٠٩
الواصفات :/ القصص العربية//العصر الحديث/

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطابعون
المطابع التعاونية
هاتف: ٢ / ٤٦٣٧٧٧١ - فاكس: ٤٦٣٧٧٧٣
ص. ب ٨٥٧ عمان ١١١١٨ الأردن
البريد الإلكتروني coop_pres@yahoo.com

زرقاء اليمامة

والتنفس حلماً

مجموعتان قصصيتان

حسين المناصرة

٢٠٠٩

إهداء

إلى أمي سيدة الأمهات

فقد أحيتْ ذاكرتي بحكاياتها الإنسانية!!

وجهي وزرقاء اليمامة

قصص قصيرة

التـــواشـــج

شارع المدينة العام مزروع بفوضوية الأجساد البشرية الواقفة، تترقب بحذر نهاية المشـهد...

تتلاصق ثيابهم، تنظر عيونهم بارتـعاب وشفقة إلى العمارة البيضاء الشاهقة المشرفة، تمرّ اللحظات موتورة، تكاد تتفجر...

من كل الجهات توقفت حركة السير، كأنّ أوردة المدينة شُلّت في تلك اللحظة البائسة الرهيبة...

فتاة كأنّها جميلة بوجه طفولي، تزيح عن وجهها الستارة، تظهر في النافذة المترفة كصورة شبه عارية، تمسك بطرف دفة النافذة بقلق وتوتر... قطة برية هجمت عليها عشرات النمور...

توشك أن تقفز إلى الشارع الإسفلتي المختنق بالمارة الذين تجمهروا في ثوان... تتقافز أصواتهم بحذر وترقب داعية بالسترة للفتاة شبه العارية...

بعض الرجال أمسكوا بأطراف ملابسهم؛ لعل حجورهم تستقبل حجمها المحدود، إن قررت أن تنتحر...

هذا الموقف الإنساني النابع من أناس بسطاء تحديداً، هو الذي جعل الفتاة تتأمل ملياً جدوى انتحارها بين أيدي المرتصّين عند قاع العمارة... كأنها تستثير داخلها: أتقفز إلى الحشد الهائل من الناس، حيث يمكن إنقاذها... أم تتراجع لتفكر بطريقة أضمن للانتحار فيما بعد ؟!

تنظر بين الفينة والأخرى إلى خلفها، كأنّ بعضهم يقف وراءها، لا يكاد يجرؤ على أن يتقدم نحوها؛ ليمسك بتلابيبها، فينقذها...

لم تكن هناك أصوات صادرة من الأعلى، تصل إلى الناس المتجمهرين في الأسفل، إذ إن النافذة تقبع في الطابق العاشر أو ربما أقل... فقط نظراتها إلى الشارع، إلى الخلف... مخيفة وحشية... ربما هنالك كلام يخرج من بين شفتيها، كما يتصور الناس... كأنّها تتكلم مع من خلفها، دون أن تصدر عنها نغمات واضحة...

لحظات سريعة... رعدت الصرخة المدويّة... طارت من النافذة – كطير أصابته رصاصة لئيمة في البرد القارس – تسيل إلى الأسفل... تقافز الناس المتجمهرون تحت النافذة بفطرية عفوية خوفاً من كسر رقابهم فيما لو سقطت عليها... أشاحوا بوجوههم عن منظر الجسد المرعب الذي صك الشارع... امتلأت النافذة العلوية بالوجوه السوداء التي

تنظر إلى الأسفل... صارت الفتاة جثة مقطعة إرباً...

الناس ينظرون برعب إلى الجثة... بتقزز إلى النافذة العلوية... يغادرون...

نساء كثيرات، حوامل وعذارى، بدأن - بإرباك - يتراكضن إلى الزوايا؛ ليفرغن ما في أمعائهن...

طفل صغير... كأنّه بحلق في المنظر... ربما تصور جسد المرأة دمية سقطت من الأعلى... حشد مغبر بالوجوه العسكرية... يبعدون الناس... يلملمون الأجزاء اللحمية المتناثرة...

تساؤلات كثيرة تناثرت، تقول: ما الحكاية؟ ومن تكون تلك المرأة ؟!!

ولأنها شبه عارية... وساقطة من العمارة المترفة... علكوا فضيحة منتنة...

وغدوا يتواشجون في مضغ الحكاية...!!

الراحلـــون

الراحلون من ذاكرتي يمتطون بقايا أحزان رثة؛ تصخب في دمي المشبع بزمن تبلدت فيه مشاعر العشاق، فغدوتُ بقايا قربة مهترئة لم تعد تحتمل الرقع؛ لتستر قطرات الندى الفوضوية، تتمسح بها شفاه العطاش الموغلين في صحاري اغترابهم اليبابي... لا شيء ينقذ رفاتكم غير صوت بعيييييييييد مشبع بالأنين الأعمى، يعلنُ ولادة صلاة الفجر في نهايات الخراب!!

من بينكم أيها الراحلون، يتمطّى ثوب أسود، يخفي امرأة كانت حية قبيل ثوان... تقف على قدمين حافيتين بلون تراب الأرض... صرخت... ماجت... سقطت... بان جنين لزج تيبّست عيناه؛ تمتد أحشاؤه بحبل يابس إلى رحمها الميت... لماذا تقفون، أيها المارون فوق جسدها، بُلَهَاء بعيون داكنة... تنظرون إلى الموت الماثل في سحناتكم في مرايا ثوبها الأسود؟!

هبَّ الصراخ... ثم صارت المقابر صفيراً لرياح جافة بعد الغروب المتلبد بالصقيع... بدا القبران كأنهما مطموران منذ مئات السنين...!!

من بينكم أيها الراحلون يتجلى جسد مشلول رباعياً... الجسد ضاحك وجهه... أودت به قنبلة انفجارية أباتشية لمّا كان طفلاً؛ فمكث في العناية الفائقة خمسة عشر عاماً... ثم مات... أو قتل سيان!!

الراحلون من ذاكرتي:

امـرأة أكل رأسَـها المـرضُ الخبيث من بقايا «ديمونا اللعين»...

شيخ سقط في حفرة ليست عميقة؛ فجَعَها صاروخ فاشل لم يدمر هذه المرّة البيوت الآمنة...

شاب أكلته سرعة الجيب العسكري عند إشارة المرور...

عروس قتلوها بعيار ناري أهوج من بندقية مدسوسة بين المتجمهرين في رقصة الموت...

كهل ارتفع ضغطه - لما رأى فجأة ابنه الأكتع، تجرجره الدبابة على الشوك- فهوى...

أسرة مدقعة، تتكون من خمسة أنفار، دفنهم سقف بيتهم المنهك في شتاء زاخر بمناورات العساكر الغازين...

أرملة أنهكتها دموع تقشف أطفالها اليتامى بعد استشهاد عائلهم العائد من كدحه يحمل أوراق الخريف...

صبية انتحرت -على ذمة الراوي المزوِّر للتواريخ- في ظروف غامضة، غيبت أباها الصامت في زنازين سجن نفحة الرهيب...

طفل سقط بسبب صلية رصاص من مدفع مرتزق قد تصهين...

فدائي زهري المشاعر، يعرف كيف يدافع عن أرضه وعرضه...

والدي الذي أنهكه المرض الفجائي، عشرة أعوام بعد أن فقد فلذة كبده البكر في نوبة أسرع من برق السماء...

توأما أمي (حسن وحسين) قبل أن أولد...

جارتنا المجنونة في الحواري ،العاقلة جداً في السماء، وقد أرْدَتْها رصاصة مجندةٍ غبية، أنهكها الرعب في الانتفاضة الأولى...

صديقي الذي تركته خطيبته لما علمت أنّ قلبه ينبض بلا شريان، ولا يقدر أن يتحمل البطالة في زمن الاحتلال...

الأحمق النظيف الطيب الذي قتلته غصة شربة الماء؛ وهو يضحك على مجندةٍ تقشّر وجهها الأبرص؛ تُضَاحِكُ جندياً حديث النشأة من مهاجري الفلاشا، وتتمسخر على عتاده الذي يترهل على جسده المتموج الأعوج...

شاعر تنحره سكين القصيدة في حفلنا الطفولي...

قاصة تكشّفت ذاتها في لغتها التي قتلتها في أعراف القبائل...

مسرحي أبدع حتى صار عميداً لمن أدركتهم حرفة الأدب...

روائي اغتالته انفجارية مافيا الموساد...

مخرج ملتزم بروح أمته؛ تنحره يد العقوق التي تحركها بورصة العملاء...

عميل ارتعب من أنه في لحظة ورطة شهوانية قد خان وطنه... فآثر الموت على أن يخون عرضه، منتحراً بالسّم، تاركاً رسالة طويلة يعتذر فيها عن تورطه في اغتيال بعض أهله...

سبعة عصافير تركتها بلا ماء في صهد الحرارة خلال اعتقالي لساعات طويلة؛ رافعاً يديّ ورجلي اليمنى قرب جدار إسمنتي عتيق على محسوم صهيوني، يفصل بين بيتي وأرضي...

قنفذ ذبحناه في طفولتنا؛ لنأكله، فعافته شهوتنا للحم المتعب من الشوك، فأطعمناه لكلب أعرج، كان قد انتصر على بندقية المتسللين لاعتقال حجارتنا...

عصافير كثيرة في أعشاشها «مصَّعْنا» رءوسها لنأكلها حية جوعاً؛ عندما كنا مختبئين في المغر... نحارب جحافلهم بالحجارة...

شهداء الوطن في طاحونة نازية قمعِ المحتلين ورعاع المستوطنين...

قتلى مسلسل «الحور العين» في كهولتي...

جثتا العقاد... وصلاح الدين...!!

الراحلون من ذاكرتي يولدون في لغتي؛ فتشرق بهم شمسها... ليكونوا أحياء بلا حدود... يغدو الموت شيئاً أقل من عادي عندما تتخيل ذاكرتي الراحلين منها إليها؛ فأكون بهؤلاء صبّاراً لا يموت... صباراً بأزهاره الصفراء... وبثماره الناضجة... وبقدرته على تحمّل العطش المدقع في زمن فرعنة شارون!!

مددناه في القبر... كان مشاكساً... لم أتحمل استجابته للذين يحملونه بأذرع قوية... يحشرونه في الحفرة الضيقة... يستسلم... ويوغل في البعد مع كل «دقموس» من الطين، يلتصق بحجارة حفرته الأخيرة...

كان الوضع أصعب من تحريكه فوق اللوح لغسله جيداً.. آنذاك تصورته حياً يسخر منا، يدّعي الموت كطفل في بداية مشيته: يتظاهر بالنوم؛ لتحمله أمه التي تصرّ دوماً على أن يمشي بجانبها، «مشلوعاً»؛ يده بيدها...

ما أن ابتعدنا عن قبره، حتى تهيأ لي أنه خرج في ثوبه الأبيض الناصع، فوقف ينظر إلينا بسخرية مشوبة بالتحسر على أن بقيت لنا أيام من الكدّ والتعب...

ها هو سيرتاح أخيراً بعد ساعة أو أقل؛ راحلاً من هنا إلى هنالك؛ مطمئناً إلى أنه يحمل أمله بالفوز بالجنة؛ انطلاقاً من

رؤيته القديمة لنبي الأمة في نومة قبيل الفجر، في ليلة شتائية زار في نهارها المقبرة الواسعة رغم الحصار ومنع التجول، بكى..!! وفي الليل رأى نبيه أبيض أكثر من ناصع، بحلة بيضاء لم يرَ مثلها، يركب جواداً أبيض بأجنحة بيضاء لم يرَ مثلها.. منذ هذه اللحظة صارت الحياة والموت عنده سيان!!

أي عالم هذا الذي يضطجع في هذه المقبرة ذات الطبقات الثلاث... الراحلون من ذاكرتي إلى هنا يفرحون أو يحزنون... كان فرِحاً فيما أتصور ..وكانت ذاكرتي تمتلئ براحلين يمشون كأطفال الندى ..يتبسمون بوجوه تشرق كشقائق النعمان في فصل الشتاء...

أرّقتني بعض هذه القبور الفاغرة تنتظر حظّها العاثر من الأجساد... نظرت جهة الزاحفين من المقبرة إلى خوفهم في دنياهم، يكدّون فيما انفلت من أوقاتهم البليدة... من سيعود منكم ليدفن ظهر غدٍ أو بعد غد ؟!!

مكتبته تمتلئ بالغبار والعث... شهاداته المعلقة... ترقياته وجوائزه... كتبه... أبحاثه التي لم يكملها... آخر خربشاته... قصاصات من جرائد تتغنى بحواراته... ارتباطات ودعوات تنتظر حضوره... الهاتف... الفاكس العتيق... جهاز حاسوب قديم... وآخر حديث... الطابعة... الكرسي المتحرك... الطاولة... البعثرة... بقايا أشياء...

إبداعات اكتملت أو لم تكتمل... يحتاج إلى أكثر من عمره ليتم ما بدأه ولم ينجزه... لكنه رحل...!!

الآن، ما تركه يصرخ في سحنتي المستسلمة: اخرج... اخرج!!

في تلك اللحظة قررت أن أحمل روحي، وأهرب إلى الصحراء... أن أختفي كما اختفى مصطفى سعيد في «موسم الهجرة إلى الشمال»؛ أو وليد مسعود في «البحث عن وليد مسعود»...!!

بكل تأكيد هو أنا... وأنا هو... أنا الراحلون من ذاكرتي... وهم أنا!!

كدت أفقد ذاكرتي... أشياؤه تسخر مني سخرية سوداء... قبره يسخر مني سخرية عبثية... ثوبه الأبيض الناصع يسخر من عرق ثيابي وألوانها الباهتة... حياتي تسخر مني... ماذا بإمكاني أن أفعل؟!

وضعت يدي فوق جبيني... أغمضت عينيّ... ناديت الراحلين من ذاكرتي... صدقوني: لم أنم... لم تؤلمني رقبتي كما تعودت، كلّما أفقت من النوم مستنداً إلى جدار الكرسي أمام الحاسوب... ربما نمت بعض الوقت... لكنني في النهاية أيقنت أن الراحلين من ذاكرتي قد تركوا خلفهم ما أنا فيه الآن من تأمل حزين؛ يصعب عليكم أن تحسّوا به؛ لأن لغتي

تعجز عن وصفه...

صحوت فجأة بعد أن «لطشتني زوجتي لطشة تمحك»، فوجدتها فوق رأسي، سمعتها تقول لي : ما فائدة قصصك المتعبة؟! هل تأتي بالشيكات إليك؟! لماذا لا تكون مثل فلان الذي يسمسر في العقار...؟! لماذا لا تكون مثل كتّاب المسلسلات المشهورة المربحة...؟! لماذا لا تعيش هناك؛ فتكون مثل أغنياء الثقافة أو السياسة ...؟!!

ضحكت في عبي... ثم عدت أستجدي ذاكرتي؛ علّها ترحم بقايا لغتي المتعبة الباحثة عن نهايات لحزنها... وثكلها... وشطحات أحلام يقظتها في امتلاءات يبابها بالراحلين من هنا إلى هناك... تاركين أشياءهم الحميمة، تتفجّع عليهم!!

العنقاء تولد في دمي

كنت نائماً في أحلام يقظتي المعتادة، التي أوعزت للطبيب أن يمنعني من قيادة السيارة؛ لأسباب كثيرة، منها أحلام اليقظة ...

بقايا طعام، وأكواب قهوة سوداء متناثرة... أوراق كثيرة، وخرافات لحكايات لم تعد ذات صلة بما أنا فيه... وأيضاً كتب نقدية متعددة!!

سخرتُ من كتاباتي كلّها، التي لم يقرأها - فيما أتصور- واحد من بين هؤلاء البلهاء... كانت العنقاء بداية قصيدتي ونهايتها... ولا تعرفونها ؟!!

أكثر من ثلاث سنوات، قبل ربع قرن من الآن، وأنا أكتب عن العنقاء التي تحترق كلّ خمس مئة عام، وتولد من رمادها عنقاء جديدة!!

هل تعرفون العنقاء؟!

لا أحد يجيب!!

ألم تسمعوا عن العنقاء أسطورة أجدادكم العرب؟! ليقل لي واحد منكم، من بين الخمسين طالباً في سنتكم الأخيرة، لا تكتظ بهم القاعة الفسيحة، أنه سمع عن العنقاء؟!

كان الصمت مخيباً ! !

اللعنة ! ! أأنتم على أبواب التخرج؟ ! ! كان عليكم أن تدرسوا «قواعد الإملاء والترقيم» بدلاً من «النقد الأدبي الحديث» ! !

المحاكاة... التعبيرية... الخلق... الانعكاس... الأدب وعلم النفس... الأدب والمجتمع... البنيوية... التناص وما بعد البنيوية... نظرية التلقي... النقد النسوي... النقد الثقافي... نظريات كثيرة تصل إلى أربعين نظرية... النقد الأسطوري مثلاً... لنقرأ هذه القصيدة من منظور النقد الأسطوري، وتحديداً من منظور أسطورة العنقاء العربية... هل تعرفون العنقاء؟ !

قال - بخجل باسم - ذلك المنغرز بين الوجوه الباهتة: اسم بنت في مسلسل... ثم غابت كلماته ! !

* * *

يبدو أنني لم أكتب قصائدي لهم... ربما كتبتها لتلك الأنثى التي أحببتها في مطلع حياتي العاطفية... تشرق عيناها بمخملية خاصة جداً، وأنا أقرأ لها قصائدي عن العنقاء... وماذا بعد؟ ! «الحب أعمى»؛ هذا ما قالته جدتي - يرحمها الله ! !

هل تفتح العنقاء بيتاً؟ ! هل تبني العنقاء علاقات اجتماعية ممتدة في الرياء والضغينة ؟ !

في تلك اللحظة الغبيّة جاءتني؛ لتخبرني أنها قررت أن تتزوج من المهندس المقاول ابن خالتها، أشارت إليه... نظرت إلى الفراغ، فكانت صورته بشعة مثل «الرّخ»...

ماجت الأرض للحظات... صار رماد العنقاء أكثر مما أتصوره الآن!!

أخبرتني أنها ستبقى تحب العنقاء التي لن تفتح بيتاً، أو تربي طفلاً... كأنّي سمعتها تقول قبيل أن تغادر: ستسمي ابنها الأول باسمي، وابنتها الأولى باسم العنقاء!!

شتمتها... شتمت العنقاء... ثم تناولت، في غير وعي مني، يد «إحدى الجميلات» نكاية بها، وقلت - بدا وجهها للحظات مغموساً في كآبة اليائسين... وبكل تأكيد، كان وجهي مثل وجهها أيضاً، إن لم يكن أكثر: سأتزوج هذه الجميلة، أيتها القبيحة!! فما كان من هذه الجميلة إلا أن صفعتني... وضحكتْ بسخرية عفنة!!

* * *

منذ تلك الحالة الموغلة في الظلام، لم أكتب عن العنقاء... كتبت عن الغول... الرّخ... التنين... الهامة... عمّارة القبور... الأفعى... الحرباء... أعور الدجال... أم أربعة وأربعين... الزنزانة رقم (٦)... العنكبوت... طواحين السوس... حانا ومانا... الاحتلال... الغزو الثقافي... العملاء... السرطان...

الفاسدين... الأشلاء... كل الأشياء القبيحة تحفر في لغتي رموزاً بشعة... لكنها تُعجب النقاد؛ فيؤوّلونها بالسّلطة، والقمع، والرأسمالية، والإقطاع، والاغتصاب، وكل ما من شأنه أن يجعل «خرابيطي» ذات معنى إبداعي؛ لا يبالي به البسطاء الجائعون!!

على أية حال، كان هاجسي أن أهجو امرأة؛ كنت قد أحببتها كحب قصيدتي للعنقاء... لكنها هربتْ... فهربتُ من رماد عنقاء قصيدتي المذبوحة آنذاك أكثر من خمسة وعشرين عاماً...

لأكثر من ربع قرن، كنت أبعث قصائدي الهجائية إليها؛ حيث تقيم في فراغ ما!! أنشرها هنا... وهناك... وهنالك... وفي كل مكان؛ لتصل إليها على الرغم من أنفها الصغير وسمرة وجهها اللمّاع؛ فتوجعها في سويداء قلبها الغادر، الذي نحر حبي الأول المورق كخضرة أوراق الزيتون!!

ها هي العنقاء، الآن بعد ربع قرن، تولد في دمي ولادة جديدة ...

لم أسمع عن تلك المرأة - السوداء في ذاكرتي - شيئاً منذ أن انتهت حفلة التخرج قبل ربع قرن!!

ربما ماتت منذ تلك اللحظة التي قررتْ فيها أن تبتعد عن العنقاء المعدمة التي امتلأتْ بها قصائدي... أو ربما كانت تنجب طفلها الأول... فأنجبت عنقاء صغيرة، ثم ماتت في

رماد روائح عقاقير المشفى الخاص!! وربما كانت تقود سيارتها في لحظة هواجس الندم داخل أحلام اليقظة على ما فرطت به (أي حبي)، فصكتها شاحنة ضخمة... وماتت؟!! أو ربما أسهمت أموال زوجها الكثيرة في أن يتزوج عليها امرأة أصغر سناً وأكثر جمالاً... فاستشاط غضبها الذي أكل أصابعها الصغيرة، فكانت الجُلطة أسرع مما تتصور؟!

* * *

عجبت من هذه «النظارة السوداء» التي يضعها قلمي على عيني العنقاء الجديدة المحشوتين في دمي بعد ولادتها من جديد...!!

ابتأستْ العنقاء الجديدة... كادت أن تتحول إلى رماد في لحظة ولادتها... فالولادة المشوهة تعني ذاكرة رمادية أو سوداء مثقوبة!!

بدأت أعيد حساباتي المتفائلة : تلك التي كنت قد أحببتها في مطلع عشقي... كانت امرأة واقعية... تريد الحياة من فطريتها الباسمة إلى كآبة اللحوم المجمدة...

أن تكون عادية : سعيدة ... تشكو، وتتذمر...

أن تفرح كطفلة بهدية رخيصة الثمن ...

كأنها فرحت أكثر عندما ساعدتها عن طريق صديق مستنفذ لاستخراج «رخصة قيادة» ...

وفرحتْ كثيراً...كثيراً، عندما رأتني أبحث لها عن سيارة نظيفة مستعملة... ستمكنها- كما قالت - من أن تتخلص من تعليقاتي البائسة على مشاويرها العائلية القليلة!!

٢٩/ ٧/ ٢٠٠٥

وجهي وزرقاء اليمامة

إهداء إلى الذين استشهدوا أخيراً

في الفلتان الأمني!!

طمسَ وجهه في كفّيه المشرّعتين دوماً؛ لاحتضان العبور إلى الهاوية البعيدة... كانت زرقاء اليمامة تهذي، أو هكذا يتصورها، بكلّ الأشياء التي تخلع بقايا براءات الطفولة وأغاني الحصاد المشبعة بالعرق ونعناع «الشتاء»!!.

أهذه هي النهاية؟! صامتاً كحجر ملّ من مناطحة الفراغ... وهي (زرقاء اليمامة) عمياء تهذي... والغريب أنها ما زالت تهذي عن الرؤى البعيدة!!

أية رؤى بعيدة بإمكانها أن تجعل هذا الوجه - الهارب إلى كفيه كنعامة تائهة في رمال ممتدة في صحراء توشك أن تبتلع سرابها – وجهاً أليفاً ؟!

كانت زرقاء اليمامة – كما كان يسميها في كتاباته التي لم تعد تقرأ في احتفالات المدارس – امرأة تعشق النظر إلى

البعيد... وكان الشعراء يعشقونها؛ لأنها تمتدّ بلغتهم إلى عوالم سندبادية، لم يكن بإمكانهم أن يفتضوا طلاسمها بغير ما توحي به هذه الزرقاء العجيبة... حقاً إنها امرأة ولا كلّ النساء!!

لم يعد بإمكانه أن يتابع ما تهذي به... وضع وجهه الذي لم يعد كيّساً بين كفيه المرتعشتين؛ صاكاً أذنيه على انفجارات الهزيمة التي جعلت الذين يعرفهم يدفنون بنادقهم في زوايا الإسمنت، في جدران كل العمارات الجديدة آنذاك؟!

ما أن بحثت عن لغتها المتطايرة في الهذيان؛ لأصلح من أمر وجهي المستكين في غربة النعامة وضياعها ..حتى تأكد لي أننا (أنا وزرقاء اليمامة) لم نعد نعشق أحلامنا... فالوجه وجهي... وأنا أعترف أنه مقبور... والهذيان هذيانها... وأنا أعترف أيضاً بأنني لم أعد أستمع إلى ما تقول!!

كيف بإمكانها أن ترى البعيد قريباً، بعد أن غدت عمياء؟!

الحديث عن البصيرة لا البصر... هذا حديث ورد في أكاذيب الأعراب، فلا أومن به... الحقيقة أنها لم تعد ترى!! قد أصدق ما تقوله من الذاكرة... أي أنّها رأت الشجر يمشي (لم يصدقوها)... كانت ترى ومع ذلك لم يصدقوها... آنذاك صدقتها لأنني «ببساطة» كنت شاعراً... وكان وجهي كيّساً... فعشقتني... وعشقتها... وصرت مجنون زرقاء اليمامة!!

اليوم يا سادة يا «غير كرام» غدت زرقاء اليمامة عمياء... ولم يعد وجهي كيّساً... والبعيد... البعيد الذي تهذي به لم يعد يثير لغتي غير الحكيمة... لم أعد شاعراً... صار وجهي نعامة... وصرت أمشي بجانب الحيط (الجدار العنصري الآن)، وأضع وجهي بين الوجوه المدفونة في أكفّها، وأقول مع القائلين... أي مع النعامات الدافنة رأسها: يا رب سترك!!

اليوم يا سادة، غدا وجهي معفّراً بكل ما يمكن أن تتصوروه: وجهي إرهابي (على الرغم من أنّي أحارب لأحرر وطني)، فلتان أمني... (على الرغم من أنّي كتبت قصائد كثيرة تحارب تجار الحروب)، معادٍ للسامية (على الرغم من أنّي الأصل في هذه الحكاية المزورة...)، سيّال النفط (على الرغم من أني متسول، بل مدين للبنوك الربوية)، منتفض (على الرغم من أني سلمتهم الجمل بما حمل)، متعولم (على الرغم من أنّ حظي منها كحظ إبليس في الجنة)...!!

أعتذر عن هذه اللغة البائسة، وعن تكملة سرد بقية صفات وجهي المغموس في كفيّ المرملتين مع نفايات وجه «بوش» النووية!!

كانت زرقاء اليمامة تهذي... وكنت عاشقاً أبحث في فضائيات العريّ عن امرأة تحتضن وجهي الميت؛ لأهرب من صحراء الخوف... وحينها لا تستغربوا أن تجدوني بوجه جديد

يابس... يراقص الغواني، ويدفع حسابات «المشاريب» كلّها... طبعاً كرم حاتمي!! أترغبون في أن يصفوكم بالبخلاء!!

ربما... ربما حدثتني يوماً ما (أعني زرقاء اليمامة) عن حتمية النصر... وعن النهاية الباهرة البهيجة... فغردت بأساطيرها إلى حدّ أن نسيت أن أعدّ عدتي؛ لأحارب!!كم تمنيت لو كنت شهيداً قبل أن أغترب، وأضيع في متاهات تجار الوطن!!

في ذلك الوقت: كانت أحلامي يانعة... ووجهي كيساً... وعشقي لزرقاء اليمامة سيدة النساء المبصرات... وأبتهل في محراب الشهادة!!

ماذا بإمكاني أن أقول الآن ؟! زرقاء اليمامة عمياء وتهذي!! ووجهي مقبور بين كفيّ الميتتين ولا أسمع؟! الآخرون يتصارخون: إرهابي... فلتان... نفط... غواني... متحجر!!

نظرت إلى وجه الصحراء: رأيت وجوه: بوش، وشارون، وبلير... تضحك بهستيريا الأشباح، كانوا ثملين بين وجوه كثيرة تماثلهم، رأيت من بينها بعض وجهي المفضوح، الذي قبر أكثر من نصفه في الرمل كنعامة لم تعد تبيض!!

منذ أن استشهد «محمد الدرة» قررت أن أجهض شعري؛ فوضعت رأسي بين كفيّ المثقلتين بالموت وهذيان سيدة النساء

زرقاء اليمامة... ثم ما أن بدا لي «وجه الدرة» مؤخراً، يشعّ بخضرة السماء في صحراء كل الأشياء من حولي، حتى تيقنت أن الصحراء لا يمكن أن تكون كلّها ضاحكة ثملة!! حينها بدأت أنصت لسيدتي العمياء في غير بصيرتها!!

أنا والشيء التافه المكسور

١

هذا الشيء التافه المكسور يثير أعصابي!!

يدفعني إلى التقيّؤ، بل يجعل الحساسية ذات الحوافر الحمراء تكسو جسدي... فتغشاني حكة غريبة تتحول إلى هرش... فيظنّ الرائي أنني أجرب، أو لم أستحم منذ عشرات الشهور!!

لم يكن بوسعي أن أتحاشاه منذ أن أوصاني جدي نقلاً عن جده الأول رحمهما الله، تلك الوصية التي ما زالت تدق دقاً عنيفاً في رأسي الأشيب، فأتخيل لحظتها آنذاك بعفويتها، ماثلة أمام عينيّ المتعبتين، وحميمية بأنسها الممتد في عروقي المتشائمة من هذا الشيء التافه المكسور على وجه التحديد...

قال بصوته الحنون الواهن:

الجامعة ليست مثل المدرسة... قد يمهلني عزرائيل فأراك...

أنت يا جدّي ستعيش!! ستسمي ابني الأول على اسمك... سأتخرج في الجامعة، وأعمل، وأحبّ، وأتزوج، وأنجب... على الأقل ستعيش عشر سنوات!!

مات جدي بعد شهرين دون أن أراه... إنه يسكن الآن في مخيلتي؛ يقرأ عليّ وصاياه الثلاث:

لا تفضِ بسرك لزوجك!!

كنت دوماً، أفضي بسري إليها، وكانت تفضح أسراري، كلما غضبت!!

لا تقترض مالاً من لئيم معدم، قد اغتنى فجأة!!

كنت دوماً أقرض اللئيمين المعدمين على أمل أن يغنوا... فأيئس من سدادهم، ولا أعود أطالبهم بها، ولا يتذكرونني!!

لا تصاحب شيئاً تافهاً مكسوراً!!

لم أصاحب هذا الشيء التافه المكسور، ولم يوجد من بين أفراد عائلتي الممتدة من انتسب إلى هذه الأشياء التافهة؛ فالجدّ قد أوصى الجميع على أية حال بهذه الوصية المتواترة أباً عن جد!!

٢

عندما تظاهرنا في الجامعة نطالب باتحاد للطلبة... كان وجهه التافه المكسور بعذابات تحيات الذل التي ينهق بها صباح مساء لأسياده القاهرين لإنسانية طفولته التي ماتت

في ثنايا تدريبات مملة، تُعوِّده على إذلال أي مواطن مقهور بالعصا، والمهانة، وكل ما تصل إليه عبقريته المبدعة في التآمر والتعذيب!!

قيّد يديّ خلف ظهري، لم يترك شتيمة من تحت السرّات... دون أن يشتمني بها... هوى كثيراً بالعصا على ظهري، وساقيّ، وبكثير منها على مؤخرتي... فغدت مؤخرة قرد، يشوبها كثير من الزرقة!!

٣

لم أكن أعرف، وأنا أسير آمناً في الشارع العام مساءً، أن هذا الشيء ذا الوجه المكسور بعذابات تحيات الذلّ، الذي خرج من الظلام المظلل بالأشجار الداكنة، يشهر مسدسه في وجهي، يصفعني، يطلب مني أن أعترف بأنني اقتحمت حديقة منزله الفاره... لأغازل ابنته... أو زوجته الجديدة - أنه شيء تافه منهم، كان قد تقاعد منذ زمن بعيد... وما زال يحلم بأنه فارس الفرسان في الغزو والخذلان، والتمادي على خلق الله!!

سوء حظي يجعل الأشياء التافهة كلّها، التي عرفته أو لم تعرفه، تتحالف معه في «مغفر حيّنا»، الذي كان يحكمه قبل عشرة أعوام... وببساطة القمع الموغل في أعماقهم،

سجنوني شهراً مع الأشغال الشاقة في تنظيف «المراحيض المنتنة»؛ بتهمة «زقر» الحجارة على بيوت الجيران... كانت هذه التهمة، ولله الحمد الذي لا يحمد على مكروه سواه، أخف من «انتهاك حرمة المنازل المجاورة»!!

٤

كان ذو الوجه التافه المكسور بعذابات تحيات الذل، يكتب عني التقارير... يحذرهم مني، ويبين فيها أني الأخطر... بكذا... وكذا... وكذا...!!

لم يفرق لسوء حظي بيني و (بين) رفيقي... كان رفيقي مشاكساً مؤدباً... وكنت مسالماً متغابياً... كان هذا الشيء يكتب عن رفيقي الذي سماه باسمي... خلط كعادته بين الأسماء... فصرت صاحب ملفات أمنية لا أول لها من آخر... وعليّ أن أثبت وجودي لعدة أعوام صباحَ مساء... أوقّع جبرياً في دائرة الأشياء التافهة...

صادفته بعد عامين من عذابات ذلّ التواقيع الجبرية... سلّم عليَ بحرارة المنافقين... وسألني عن رفيقي المشاكس فلان... ولما أخبرته أنّ اسمه ليس اسمي، وأنني فلان الذي يقصده... اعتذر لي عن التقارير التي كان يكتبها لما كنّا طلاباً عنه باسمي؛ متهماً سلوكياته بالتخريب والتحريض

على المسئولين الأمنيين، ووعد بأن يزيل ما وقع من غموض وسوء فهم غير مقصود في حقي، مع عدم براءتي من تحمل بعض المسئولية في رأيه...

كان فرحي كبيراً عندما توقفت دائرة الأشياء التافهة عن ملاحقتي بعد ثلاثة أعوام من لقائي الميمون بذلك الشيء التافه المكسور!! هكذا يغدو التشاؤم تفاؤلاً في تجربتي معه.

٥

هكذا - أيضاً - كنت المحظوظ باحتفاءات ذي الوجه التافه المكسور بعذابات تحيات الذلّ، يتبعني كظلّي، ويرسم لي تفاصيل مشاوير حياتي... حتى عندما صرت مهماً... كنت أتواضع، ولا أجلس في الصف الأول المحجوز في المناسبات العامة لكبار الشخصيات منهم...

أصرّ أحدهم آمراً أن أجلس في الصف الأول... أن أرفع الورقة التي كتب عليها «محجوز»، وأجلس... ولأول مرة أمارس الجلوس في الصف الأول...

جاءني الشيء الآخر راكضاً من هناك، يعنفني، غاضباً، هامساً بلحيته الكثة، وكرشه الممتد... ووجهه المكسور بعذابات تحيات الذل، مستنكراً:

كيف تجلس في المكان المحجوز لكبار الشخصيات؟!

هم طلبوا مني الجلوس هنا... سأقوم!!

تدخل وكيل الأشياء التافهة :

دعه يجلس!!

ارتدّ كأفعى لسعتها أفعى أضخم... نظر إليَ بحقد ،يريد أن يلتهم فأريتي التي لا تتقيد بتناقضات الأشياء التافهة!! تحاشيت النظر إلى عينيه المفترستين التافهتين، تصورتهما مدفعين صدئين مصوبين نحوي، وعلى استعداد للانفجار في أية لحظة!!

٦

كانت إشارة المرور في الشارع العريض مزدحمة أشد الازدحام، وكعادتها يقطعها صفراء أو مشوبة ببعض الحمرة ثلاثون أو خمسون سيارة أو أكثر...

اختارني من بينهم...

أنت قطعت الإشارة...

أنا...

اسكت... اسكت...

سحب رخصتي... سجنني في سيارة المرور... دوّن مخالفة كبيرة... وكتب : يسجن مدة ثمان وأربعين ساعة...

لم يكن مجدياً التدخل في قراراته الانتقائية التافهة... ليس بإمكاني أن أنكر افتراءه عليّ بقطع الإشارة... عملي الرسمي في مؤسسة حكومية كبيرة لم يشفع لي... كان حاقداً... وكنت ضحية مقهورة بلا رصيد من الوساطات التي تجدي – عادة – مع الأشياء التافهة المكسورة في مثل هذه الحالات!

كان اعترافي بـ «اللاذنب» فضيلة!! والمهم أنني لم أصاحب شيئاً تافهاً مكسوراً، بناء على وصية جدي– يرحمه الله!!

٧

لم يكن بوسعي أن أقبل ما طرحه عليّ هذا الشيء ذو الوجه المكسور بعذابات تحيات الذلّ، فأكون المخطئ في الأوراق الرسمية في حادث الاصطدام بين سيارة الحكومة وسيارتي... لقد استعدّ، وهو يبتسم بلون أصفر تافه، أن يدفع تكلفة إصلاح السيارتين المصدومتين (سيارة الحكومة وسيارتي) ... فالموقف في رأيه الواضح أنه المخطئ في الحادث مئة بالمئة، وحفاظاً على شرائطه القليلة فوق كتفه اليسرى التافهة، طلب مني بتواضع التافهين أن أعترف بأن سيارة الحكومة كانت متوقفة، وأن سيارتي هي التي صدمتها، وليس العكس!!

لم يعجبه أن أرفض هذه المودّة منه ،وحسن نيته في التصالح «البراجماتي» معي... بل لم يعجبه أكثر أن أشير إلى لحيته الكثّة الدالة على مظهر يخدع به الأغبياء...

النتيجة: أنا الضحية في دائرة الأشياء التافهة... أدخلوني السجن... وصار الحق عليّ مئة بالمئة...!!

حمدت الله أنّها كانت أهون المصائب... ولو رويت لكم تفاصيل هذه الحكاية المملّة مع الأشياء التافهة المكسورة... لوقف بعض شعر رأسكم... وربما شابه البياض!!

٨

جاء الشيء المكسور؛ ليحكم في حادث مروري...

كان الخصم معترفاً بأنه المخطئ، ويريد أن يدفع ثمناً زهيداً!!

رآني... فحكم لخصمي...!!

كانت خلقتي المقهورة سبباً يوحي له بأن الحق عليّ...

وكانت خلقة الآخر كفيلة بأن تجعله صاحب حق زوراً وبهتاناً!!

٩

ماراً من هناك... لا دخل لي بما حدث...

كان المراهق يقود سيارة «لكزيس» حديثة... مسرعاً... مجنوناً... انعجنت سيارته في اصطدام عنيف بالجدران والأشجار والأعمدة... وقفت لأتفرج كعادة المتفرجين الحمقى عندما تقع الحوادث المفجعة...

قال المراهق الذي نجا من الموت بأعجوبة: إنه حاول أن يتلاشى الاصطدام بسيارتي، فحدث معه ما حدث... كلّ الأشياء الآدمية التافهة الواقفة لتتفرج أيدته...

فرح الشيء التافه المكسور بهذه النتيجة التي تدينني، فأدفع ثمن سيارة جديدة... لكنّ لطف الله بي قتل فرحته اللئيمة؛ فماتت ميتة مفجعة!!

بزغ الرجل الطيب من بين الضالين الأفاقين مشرقاً وجهه... يصرخ في الأشياء التافهة كلها من حوله... أتشهدون زوراً... ؟! ألا تخافون الله... ؟! ما دخل هذا المسكين (يعني أنا) بما عمله هذا المراهق المجنون ؟!

كاد الشيء المكسور أن يسقط من الإعياء الفجائي... لكنه تمالك نفسه، ولم يملك إلا أن يسلمني بطاقتي على مضض، ويعفو عني باشمئزاز... ويطلب من الرجل الطيب بحقد أعمى أن يكتب في الوثائق الرسمية شهادته ببراءتي!!

كان الرجل ملاكاً، ولد في لحظتها من رحم السماء، التي تحتقر كل الأشياء التافهة المكسورة!!

١٠

ذاكرتي مشبعة بالأشياء التافهة!!

الشيء التافه ذو الوجهه المكسور بعذابات تحيات الذل، يتبعني كظلي، ويرسم لي تفاصيل حياتي المملة...

أنا الضحية المقهورة بلا رصيد من الوساطات المتعفنة...

اعترافي بـ «اللاذنب» فضيلة في أزمنة الوباء وشهادات الزور...

سوء حظي المتعثر يجعل الأشياء التافهة تتعاطف معه ضدي!!

قال جدي، يرحمه الله : «لا تصاحب شيئاً تافهاً»!!

بزغ الرجل الطيب(الملاك السماوي) من بين الضالين الأفاقين مشرقاً... يصرخ في الأشياء التافهة كلّها من حوله...

أتشهدون زوراً... ؟!

ألا تخافون الله... ؟!

٣/٣/٢٠٠٦

تضاريس الشيخ فياض

عندما تنظر إلى وجه الشيخ فياض، ينتابك شعور من البؤس المزمن الذي يجعلك تأكل أظافرك القصيرة، وتحك كثيراً في قفا رأسك غير المحلوق...

خارطة العالم تكوّن ملامح وجهه الشديد التجعّد...

كنت مصراً على أن أرى خارطة فلسطين، بصفتها تجعيدة في بحر تجعدات وجهه الجاف... ثم أكتشف فجأة أن خارطة العالم في هذا الوجه الذي تجاوز مئة عام، لا تلبث أن تتحول فجأة أيضاً إلى خارطة خضراء لفلسطين، إلى خارطة مليئة بالحجارة والأطفال، وأشياء أخرى تشوه الوجه كحبيبات سرطانية سوداء... تصورتها للحظة مستوطنات، ومعسكرات، وقاذفات صواريخ... صهيونية!!

كان الوجه مؤذياً من خلال هذا التصور القبيح للوجود الصهيوني في فلسطين.. لكنه الواقع السرطاني على أية حال...!!

فجأة ثالثة أو رابعة، لعنت الشيطان، وانتبهت إلى أنّ ملامح الوجه ينبغي أن تكون طفولية... وفعلاً كانت هذه

الملامح هي الأكثر تجلياً... في هذا التصور القمحي رأيت الأطفال يخرجون من مدارسهم في صباح ندي، يحملون الحجارة؛ لينفضوها في نوافذ الدبابات المصفّحة...!!

* * *

كان الصمت يخيم على المكان الذي يواجه الشمس الخفيفة في عصرية شتوية في مدينة الرياض، يصمت الشيخ فياض، ولا تعود تعرف هل هو نائم أم سارح في ذكريات بعيدة ؟!! ثم لا تلبث أن تسمعه يصرخ فجأة :

- يا ولد، ابعد عن الحيط؛ لَيْكُر وتدفنك الحجار... يا ولد،اسمع الكلام!!

- صلّ على النبي يا حاج فياض، لا ولد، ولا تلد، ولا حيط!! ما في غير جدران إسمنتية، بعدين أنت في المدينة!!

- ما أنت شايف الولد يلعب على الحيط... هذا مش ولد... هذا جني مقرود!!

- بسم الله الرحمن الرحيم... طيب، يا ولد... ابعد عن الحيط... هيو راح...

- راح ؟!!

- راح ...

- ما ظل عندي نظر يا بعد عمك، أكيد راح!!

- أحلفلك بالله إنه راح ؟!

- خلص، مصدقك!!

هذه عادة الشيخ فياض، لا يقتنع إلا بمجاراته في أي موضوع يطرحه من ذاكرته... في صحوه يهذي، وفي نومه يهذي!!

تشعر أنه يعيش عالماً اختفى منذ خمسين عاماً، بل أكثر... خاصة عندما تجده يخاطب «نعمة»، يقول لها: «يا بنت، وين الشاي»...

نعمة زوجته، توفيت قبل عشرين عاماً، كانت أكبر منه بعامين عندما تزوجها، وما زال يناديها: يا بنت!!

* * *

على الرغم من أنّ تضاريس وجه الشيخ فياض التي تريك وجهاً مرتبكاً جافاً؛ فإنك لا بد من أن تكتشف فجأة عاشرة أو أكثر، أن هذا الوجه بلا تضاريس، يكون هذا تحديداً في اللحظة التي يبدأ فيها منتشياً يقص عليك حكاية «أبو زيد الهلالي»...

يقصّها عليك كلها أو أجزاء منها... وقد سمعتها منه أكثر من مئة مرّة، وفي كل مرة يتصور نفسه أنّه يقصها للمرة الأولى، ولا بدّ من أن تُظهر له أنك مصغٍ؛ لأنه يسألك دوما: «سامع... نمت... وين وصلنا... فاهم...».

ولا بد من أن ترد عليه؛ لتشعره بانتباهك وحرصك على

سماع القصة، وكأنك تسمعها فعلاً لأول مرة، وتشجعه ببعض العبارات بين الفينة والأخرى على أن يتابع... وهنا يفتح عينيه، وكأنه يمتلك عينين شابتين... فيبتسم لك، ويؤكد مراراً – هامساً لك – أنك الوحيد الذي «يستاهل» أن يقصّ عليه هذه الحكاية العظيمة... وينتشي أكثر فأكثر وهو يتغنى بأشعار أبي زيد الهلالي في الغزل والفروسية!!

* * *

كثيراً ما تتكشف لك تضاريس وجه الشيخ فياض البائسة في لحظاته اليائسة، وخاصة عند معاناته من الإمساك؛ إنها حالة أكثر سوءاً من الموت، وهنا تحديداً تسمعه يردد كثيراً: «يا الله، حسن الخاتمة»!!

لا ينبغي أن تسأله عن الماضي، وإن سألته يقول :«خلّ الأموات في قبورهم مرتاحين»!!

* * *

في لحظة عبقرية شدّ فيها الشيخ فياض ملامح وجهه، ونظر إليّ نظرة تتقصد أن تزن حجمي المتضعضع؛ ليثق بي، ثم قال باهتمام شديد... اسمع... خذ مني هذه الوصية يا بعد عمك:

– هذه الصحراء لا تصلح للسكن، أبو زيد الهلالي هرب منها إلى الجبال... في آخر الزمان ستقوم حرب، وحينها لن

تجد مخبأ في هذه الصحراء... اترك الصحراء وهاجر إلى الجبال، أسلم لك وأسلم لأولادك و «مرتك» ! !

– يا شيخ فياض، الله يطول عمرك... آخر الزمان بعيد عنا ! !

– بعيد... بعيد... ! ! بديت تخرّف... باقي على آخر الزمان عشر سنوات أو أقل ! !

– طيب يا عمي، طيب... أكيد لازم نهرب إلى الجبال في أقرب فرصة ! !

– هيك بديت تفهم، ما تخرّب العلاقة بيني وبينك... أنا بأقول : إنك بتفهم... بدك تصير مثل التيوس، خليك في الصحراء ! !

رحم الله الشيخ فياض، توفي منذ أكثر من عشرين عاماً... لم تقم القيامة، ولم أرحل من الصحراء... ! !

الليل .. وحليمة

توقفت إشارة منبه الساعة الجدارية على الحادية عشرة ليلاً... كان الصمت عالماً رهيباً؛ يلف المكان بطبقات من التوجس والترقب وانتظار اللحظة العصيبة المواتية بين طرفة عين وأخرى... نباح الكلاب العابث الأهوج الصوت الوحيد الذي يخربش وجه السكون الممتد إلى قعر بئر رهيبة!!

كان الوادي الأصم خالياً من البيوت الحجرية... عرائش من الطين... بيوت شعر متناثرة هنا وهناك!! سماء داكنة باللون الأسود، والنجوم لا تكاد تظهر لمعانها المعتاد في الليالي القليلة المقمرة!!

خربشات تصدر أحياناً عن عبث القطط، أو حركات الماعز، أو «عنفصات» الحمير، أو أية حركات أخرى غريبة في زمن مشبع بالحذر الذكوري، ونعاس النساء، ونوم الصغار!!

كان نهار اليوم من صباحه إلى مسائه شاقاً ممتلئاً بالترقب وبناء السدود والمراقب لمراقبة خارج المكان والتسلح ضد الأشياء الغريبة... الكل مارس العمل، رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً!! لقد تعوّدوا على الطوارئ... المكان محاط

بالرعب... يستعدون نهاراً... ويراقبون ليلاً بعيون حراس تعوّدوا على أن يكونوا محلّ ثقة الجميع بهم!!

العالم الآخر يموج بالخراب... وهم هنا يحاولون قدر المستطاع أن يحاربوا الخوف والجوع... والمجهول أولاً وأخيراً!! هكذا رضعوا الحرص مع حليب أمهاتهم!! ولما كبروا ناموا مع زوجاتهم بعيون مفتوحة يقظة، حتى انزرعوا في أرض غرائز البقاء بكل عنفوان وتجدد!!

إنهم يعملون نهاراً... ويراقبون ليلاً...

النهار ليس خطراً... أربعة أشخاص يستطيعون مراقبة الجهات الأربع... يرون على مدّ البصر كل الأشياء الغريبة!! لا خوف من النهار!!

الليل البهيم موطن الخوف والرعب... يحتاج إلى حراسة مشددة... مئات السنين والليل يحمل المجهول!! التوقع بالشر!! وحكمتهم «الليل بلا عيون، فكونوا حذرين»...

سنوات عجاف مرت على العجوز الذي يروي حكايات الحذر عن أجداده!! كان الليل الأعمى مصيبة تواجههم جميعاً!! وفيه جندوا بدل الأربعة أربعين للحراسة، وأحياناً ثمانين، وفي الأوقات العصيبة مئة وعشرين... وقد يصل العدد إلى مئتين وأربعين في الجهة الواحدة عندما يلبسهم الرعب!!

فقط يراقبون بعيون البوم والقطط البرية... إنهم خفافيش ليل!!

المجهول يترصدهم... فيحاربون رائحته في صوت البوم... ونعيق الغربان... وهبوب الزوابع...

لم يحدث أن هوجموا يوماً ما... ومع هذا كانت مراقباتهم تزداد يقظة... وتشتد حرصاً... قاعدتهم في ذلك: «من مأمنه يؤتى الحذر»!! الخوف يشتعل في رءوسهم... الشعور بالأمان موطن الرعب الأول الذي يسكن الليل الأصم!!

النساء حذرات حتى الثمالة... الأطفال يرضعون الحليب وعيونهم تنظر إلى المدى... الرجال لم يتعودوا الانشغال بسخافات الحياة الآمنة... هم مستفزون... يتجولون... يراقبون... يخططون!! وإذا سمعوا بوماً افترشوا قلقهم... وإذا طار فوقهم غراب تلحفوا بالخوف... وإن شاهدوا زوبعة، يخترق رأسها الفضاء، ظنوا أن الأرواح الشريرة تستعد لحربهم!!

صنعوا كلّ ما يحتاجون إليه من معدات الحرب!! تسلّحوا بالعصي، الأدوات الحادة، الحجارة المسننة، الخيول المجهزة... وفي النهار تدرّبوا على كل شيء إلا الراحة المحذوفة من قواميسهم!!

أخيراً، عندما توقف عقرب الساعة الجدارية على الحادية عشرة تقريباً وبلا مقدمات، أدركوا أن في الأمر خطراً كبيراً، إذ كيف يمكنهم أن يثقوا بالسلامة مع هذا التوقف العجيب؟!

منذ مئات السنين والعقرب يجرّهم من حذر إلى حذر أكثر فاعلية... ومع هذا التوقف يغدو الزمن حالة خوف رهيبة... يناقشون المسألة ليل نهار... كثر الخطباء... زاد عدد المتقعّرين بالمفردات!! توصلوا إلى أن عدوّهم كان استمرار الزمن... وها هو قد توقف أخيراً... عليهم أن يتوقفوا مثله!!

خيّم عليهم النعاس... استغرقوا في النوم... اكتفوا بمراقبة العالم الآخر عن طريق الدشات الفضائية الجاثمة فوق سطوحهم... وقعوا في بحر الدعة والبطر!! غاب الحذر... غاب الخوف... غابت المراقبة... تساوى الليل بالنهار... الأشياء كلها لم تعد ذات جدوى... حظائر من البشر... يثرثرون... يأكلون... يشربون... يتغوّطون...!! عجول بشرية بدينة!! الآخر يطعمهم... الآخر يحميهم... الآخر يرقصهم... الآخر ينتهكهم... يمتص دماءهم... والغريب أنهم مقتنعون بكونهم حضاريين!! عالم ثالث يموج بالخرافات والأكاذيب!! ليلهم رقص... وموتهم بلا ثمن!! والعارفون منهم، يقولون بحسرة غامرة : «ألا ليت حليمة تعود إلى عادتها القديمة»!!

الذبابة الزرقاء!!

لثلاثة أيام متتالية يحاول أن يصطاد ذبابة تحاصره في الغرفة الضيقة...

وحده كان يعيش مطمئناً... وفجأة بلا مقدمات ظهرت بين عينيه ذبابة!!

بودّه لو يقتلها شنقاً... لكنه لم يستطع أن يمسك بها بالطريقة التي تعود عليها قبل ذلك في محاربة الذباب... كان يلقي الكتاب بخفة، فتقبع تحته أية ذبابة معادية مخنوقة آنة، ثم تغيب في الموت الرهيب...

في اليوم الأول كانت الذبابة صغيرة الحجم، بأجنحة يانعة قصيرة... كأنها فقست لتوها من بيضتها غير المرئية التي وضعت في الغرفة بطريقة الخطأ، والأرجح بمؤامرة ذكية...

لعبت به هذه الذبابة منذ ظهورها «حيص بيص» أو «شذر مذر» كما يقولون... وهو يظن أنه كان وما زال يسيطر على الوضع بأكمله، هكذا رتّب الأمر، ولا مانع أن يلعب مع ذبابة لعبة «القط والفأر»، هو القط وهي الفأر... ربما هكذا تصور

نفسه في لحظة عبث... وقد قالوا: الذي لا يجد من يقاتله يقاتل ذباب قفاه...

يذهب ليتغوط في الخلاء... يهجم الذباب على فضلاته النازة من المؤخرة.. يتقاتل مع الذباب وقد أحنى جذعه حتى أفعمت الرائحة منخرية المنتفخين، وتدلت شفتاه بامتداد حرارة الشمس!! حكاية غريبة، وسخرية سخيفة!!

ولكن هذه الذبابة هاجمت غرفته العادية... ومن حقه أن يدافع عن ممتلكاته، حتى وإن كانت هذه الممتلكات كما يشعرونه غير ثمينة... فالأمر ليس فضلاته المتسربة في الخلاء، بعيداً عن وطء المارين... إنها غرفته!! أليس معه الحق كله أن يقاتل الذبابة حتى الموت؟!!

في اليوم الثاني بعد أن اختفت الذبابة ليلا «زنّت» فوق رأسه غافياً من شدة الإرهاق، فجاءت زنّتها كأنها رعدة حلت فجأة بلا «حاذور أو تستور» كما يقولون! قام من نومه فزعاً... نظر إلى الجهات كلها.. شاهدها ساخرة منه... توقفت للحظات على الجدار المقابل لعينيه المشبعتين بالحمرة، تأملها وسناً كسولاً... فرك عينيه الخاملتين جيداً... كان حجمها أكبر من أمس بقدر الضعفين!! إنها الآن تبدو ذبابة متكاملة بالغة...

ربما تنظر إليه بتشف أو بسخرية، كأنها تقول له، كما يتصورها طبعاً : لن أتركك بعد الآن في راحة أو سلام حتى

أقلعك من جذورك!! حاول قتلها بوسادته، بغطائه، بحذائه، بجسده، بكل ما حوله، يلحقها «قرنة إلى قرنة»...

وأخيراً، عاجزاً، حكّ قفا رقبته... هنا تذكر كلام جدته: «من يحك قفا رقبته، منكم يا شطار، معناه أنه مهزوم!!».

في كل محاولة لحربها بطريقته العفوية الخاطئة خسر شيئاً!! لعلّ انقلاب أثاث غرفته، كما ظن، رأساً على عقب الخسارة الكبرى!! فلو رأى أحدهم هذه الحالة لما صدّق أنه تعارك مع ذبابة اقتحمت عليه سكونه الذي تعوده الآخرون، على قلتهم، منه!!

تعبت يده اليمنى من حمل الأشياء في أثناء المعركة الأقرب إلى الحلم الكابوسي... تناثرت كتبه وأوراقه... تمزق بعضها!! قرر أن يهدأ لبعض الوقت، يتأمل حاله المهشّمة... أغمض عينه اليسرى، راقبها بضيق انفتاح عينه اليمنى، أبدت أنها تتمتع بإغاظته متنقلة من بقعة إلى أخرى؛ تنفث الجراثيم... مبددة بأزيزها سكونه الرهيب... دافعة به إلى التفكير بالجنون في أية لحظة، لانفلات التوازن من مسامات جسده شبه المعرّى!!

في اليوم الثالث، الصباح تحديداً ،اقتربت الذبابة ،وهو نائم ،من شاربيه ،كادت أن تقف عليهما... ربما قصدت أن تتلاعب بأنفه، لتفعل ما فعلته جدتها التي دخلت أنف

«النمرود» ثم رأسه!! صفع وجهه بصفعات مؤذية... هربت إلى الجدار المقابل!! تنظر إليه!! استغرب من لونها الذي تحول من الأسود إلى الأزرق.. اللون الأزرق في الذباب يعني لون القتل والسم!! لا شك في أنه ارتعب كثيراً، وهو يراها أخطر مما تصورها!! تيقن أنها من النوع السام لمّا ضربت الجدار برأسها، تصور الجدار آناً أو متأذياً من هذه الحركة السامة!! الذبابة الزرقاء غير الذبابة العادية السوداء...

الأمر لم يعد على نحو: «إذا وقع الذباب على طعام، رفعت يدي، ونفسي تشتهيه»، أو «إذا وقعت ذبابة في كوب الشاي، أغمس جناحيها فيه، ففي أحدهما السم، وفي الآخر الشفاء»... المسألة أخطر بكثير... هذه ذبابة زرقاء، غريبة، يراها لأول مرة... قرأ كثيراً عن ذباب الهكسوس، والتتار، والرومان، والأتراك، والإنجليز... ولم يجد ألعن بل أقذر من هذه الذبابة!!

فتح المنجد المتوافر لديه لينظر الفعل ذبب، صدمته المعاني: الجفاف، العطش، الهزال، الجنون، دخول الذباب في المنخر، الطاعون، الشؤم، الشر الدائم... وأخيراً «الذباب حشرات... وهي أجناس شتى. كثيراً ما تتغذى بالأوساخ، فتنقل الجراثيم والأمراض» وأيضاً «أرض ذبوبة ومذبوبة كثيرة الذباب»... صفع جبهته صفعة قوية... همس: غرفة مذبوبة كثيرة الذباب!! اللعنة!!

لبس عتاد المعركة والملابس الواقية، للذبّ معنى وحيد إيجابي: الدفاع عن الأهل والقوم!!

ارتعب من فكرة أن يموت بلسعة ذبابة!! ربما تخيّل نفسه بعد اللسعة ينام حتى يموت!!

أعلن الحرب عليها بلا هوادة... وضع السكاكر المسمومة في مواقع عديدة لاصطيادها .. تأكل كل ما تريده... بل تتحرك بحرية تامة في غرفته... ترعبه بقدرتها على التحدي... ما أن يحاول قتلها حتى تهرب منه نزقة فرحة ساخرة... يتألم وهو يتلقى صفعاته الحادة على جسده الموجوع... لم يترك جزئية من جسده لم يتصور الذبابة واقفة عليها... فيوجع نفسه ضرباً!!

قرأ الكتب عن مخاطر الذباب... اشترى المبيدات المتاحة!! حاول معها بكل الكلمات الطيبة!! فتح النوافذ لتخرج من غرفته تلقاء نفسها بسلام... وعدها أن يساعدها قدر استطاعته إذا قررت أن تعيش بعيداً عنه... لم يترك وسيلة للخداع إلا وأغراها بها، المهم أن تخرج من غرفته... بكى بحرقة متوسلاً أن تغادر غرفته... كانت تحاصره غير مبالية بانكباسه في عنق الزجاجة!!

غابت عن ذهنه فكرة أنها تضع البيوض في كل مكان تقف عليه... البيوض التي لا ترى بالعين المجردة... أرعبته الفكرة

عندما اشتعلت في رأسه... الذبابة غير مبالية بحربها معه... إنها ذات هدف لعين، هدف استيطاني... أن تضع البيوض في كل مكان!! تصور الغرفة ممتلئة بالذباب!! مستعمرات ذبابية تنتشر في كل أنحاء غرفته! حتى ملابسه لم تخل من نفاياتها!! ماذا بإمكانه أن يفعل تجاه هذا الذباب اللعين،هو الآن عاجز عن اصطياد الذبابة الأم ؟!

جنّد كل الذين يعرفهم من خلف الجدران... حدّثهم عن الذبابة الزرقاء... استهتروا بأفكاره... ربما سخروا منه... كيف يرتعب هذا العملاق من ذبابة ؟! بعضهم حاول مساعدته لرفع العتب، لا أكثر ولا أقل... بعضهم ما زال يخطط!!

الذبابة لم تترك لهم مجالاً لينجحوا في دحرها، أو هز شعرة من رأسها... أو ثنيها عما جاءت من أجله!! ناموا مع شعاراتهم الرنانة، المحذرة، المستنكرة، الشاجبة، الداعية إلى عقد مؤتمر دولي لحل مشكلة الرجل المذبوب مع الذبابة الغازية!!

الذبابة غدت ذباباً... هو غدا بين فكي الكماشة... تناثرت أشياؤه هنا وهناك... الذبابة وبناتها يجعلنه أسيراً مشرداً مذبوحاً!! حكاية الرجل الذي اغتصبته ذبابة!! وخلفت منه ذبابات كثيرة!! حكاية أسطورية!! الذباب يهجم على رأسه!! يقاوم.. قاوَمَ(بفتح الميم) ... قاوِمْ(بسكونها) ...

الذبابة الأم لا تمانع أن يبقى معها في الغرفة بشرط أن يحترم حق الذباب في الوجود، أن يقتنع بأنه ذبابة تعيش بين الذباب... عليه أن ينسى إنسانيته... رجولته... عقله... تاريخه... أرضه... أشياءه الخاصة... أن يتفانى في رعاية حقوق الذباب والأرض الذبوبة أو المذبوبة! عليه أن يتنفس الهواء الذبابي بكل ارتياح... أن تكون حقوقه أقل من حقوق أية ذبابة مقموعة من بقية الذباب!!

إنه غدا ذبابة!! لكن حجمه أصغر بكثير من حجم الذبابة التي استعمرته... اقتنع أخيراً أنه راضٍ بدور «الهسهسة»!! إنه الآن ابن(...)!! آسف... ابن ذبابة!!

حارب نفسه الذبابية... رأى نفسه يخنق نفسه برش المبيد... هبّ من نومه صارخاً يابس الريق... حمد الله على أنّ ما رآه كان كابوساً... ثم فكر: ربما هو حقيقة بطريقة أو بأخرى!!

تداعيات الهجاء

تعودت أيها القاص المنتفخ أن تنتزع قصصك عن الواقع نزعاً، تهرب إلى المجرد، الغامض، الرمزي، المنقطع عن التواصل... تردد كالببغاء:على الآخر أن يفهمني، أن يعيد إنتاج ما أكتب، أن يكدّ ذهنه وجوارحه كلها ليفهم...

إن لم يفهم فإلى الهاوية، كل القراء الذين لا يفهمون ما أكتب إلى الهاوية، أنا لا أكتب مادة مستهلكة، لا أكتب «بورغر» و «آيس كريم» و «سفن أب»، أكتب لغة فوق اللغة، مختلفة، أسطورية جديدة... ليست مهمتي أن يفهموني...

حتى يفهم الآخر عليه أن يكد ويكد ويكد... أن يفهم شيئاً واحداً، هو أن لغتي تحتاج إلى قارئ عبقري، مختلف، منتج، أسطوري، يمتلك جماليات خارقة يستطيع بوساطتها أن يفكك كتابتي إلى مزيد من الذرات؛ ليصل إلى أعماق أعماقها بتأويل عجيبة غريبة، أن يعيد كتابتها في مئات الصفحات... هذه الخرافة!! هكذا بدأت...

هكذا ستتوقف قصصي بعد أن أموت لتخلد في أذهان القراء، تشير دوماً إلى أنني عبقري زماني، لم يفهم أحد ما أقول، ولن يخلق فيما بعد من يفهم... بكل تواضع أقول: من هنا تبدأ عبقريتي الخالدة...

* * *

ماذا تفعل الآن تجاه «حكايتها»؟! انتظرت ولادتها خمسة عشر عاماً؟! قل ماذا تريد أن تكتب عنها؟! هل تكتبها بلغتك المعهودة؟ أم تكتبها بلغة مباشرة واضحة...؟!

عبر ثلاثين عاماً تكتب بلغة تجريبية، حداثية، تكسر المألوف والمستقر، تهدم الجماليات كلها، تتمرد على الرؤى كلها، كنت رمزاً من رموز الكتابة الجديدة... لم تدرك يوماً أنك تزداد عقماً يوماً بعد يوم...

عليك الآن أن تعلن جنازة أكثر من ثلاثين كتاباً نشرتها، بلا نقطة دموع. جعلت الآخرين الببغاوات يرددون اسمك، كبطل ورقي للكتابة السريالية المعاصرة ...

الببغاوات تردد لغتك في مقالات نقدية لم تفهم منها شيئاً. أعداؤك كتبوا عنك بإعجاب خوفاً من أن يُتَّهموا بالتخلف والتقليدية... مسكين أنت، هم أكثر مسكنة منك، تضحك على حالك عندما تتصور نفسك عبقري زمانك، داخلك الأعمى يعرف أنك هش، ممسوخ بين ألف ليلة وليلة ووليم فوكنر...

كنت في المحافل طاووساً فوق رءوس الجميع، وأنت لست بأكثر من أعقاب سجائر ملقاة على أطراف المقاعد في مقهى قديمة، يديرها رجل عجوز لا يرى الأشياء بوضوح...

ماذا عليك أن تفعل تجاه حكايتها؟! هل تكتبها بسرياليتك الفجة «العجة»، أم تكتبها كما حدثت في الواقع، هل بدأت تشعر بأن خيالية الواقع أكبر من خيالية كتاباتك كلها... لماذا لم تصدق في الماضي أن بعض ما يحدث في الواقع أكبر من أية كتابة، من أية قصيدة شعرية أو ملحمة أو رواية رباعية أو لوحة تشكيلية ضاجة بالألوان؟!

اشحن الآن نفسك بالدراما التراجيدية، اكتب مأساتها البسيطة لتنسف العالم القبيح من حولك... عد إلى ذاتك مرة واحدة... قل: إلى الجحيم تلك الحقوق التي تخص حرية الإنسان... إن بقيت الحرية توضع في هذا العالم للأقوياء... أنت سخيف، ضعيف، عاجز منذ ولادتك، ربما ستبقى على هذا إلى موتك... من المهد إلى اللحد، كما يقولون.

أيها السريالي الغبي، الطبل الأجوف، أنت تسير إلى الهاوية... هيا... هيا... قم الآن من رمقك الأخير، اجمع كتبك، نسخة واحدة من كل كتاب تكفي، أشعل النار بها، تعرّ من سخافاتك، اكتب مرثية وحيدة يفهما الناس... يبكون... يغضبون... يفعلون شيئاً!! قم أيها العاصي الآن، في هذه

اللحظة بالذات، اهدم عرشك السفسطائي الديماغوجي النتن... لا تندم على شيء، عليك أن تندم، إن ندمت، لأنك لم تفعل هذا منذ سنوات طويلة، سنوات الشباب، كنت أخرق، وما زلت إن لم تحرق كتبك... قل لها إلى الجحيم... اكتب قصة عن حكايتها، وهي التي لم يتجاوز عمرها أسبوعين، تحمل شقاء العالم كله، هل لها وطن؟ أم أنها مشردة؟ أم أنها «بلا» كإخوتها الصغار... لماذا لم يسمحوا لها أن تعبر... لماذا تحمل وثيقة لم يعترف بها إلا في المواسم... بأية صفة ستعيش؟!!

لن تصدقوا أنها (إسراء) تنام لحظات... ثم تصحو مذعورة، تصرخ، تنام، تصرخ، تنام، تصرخ، تنام تصرخ... رخ .. رخ .. رخ .. رخ .

الرخ طير أسطوري يتغذى كبد البشر .. اكتب أيها العاصي عن الرخ... الغول... الذئب... الثعلب... الحيوانات البشعة التي تحاصرها بقيودها، وحوش تتمدد لتحاصر طفلة رأت النور أمس... سارت بين حقول الألغام وبقايا الجثث... رأت الدوائر تعج بتبغ «الماربورو»، عاصرت الحدود المتقيحة هنا وهناك وهنالك... في الأمكنة المزروعة بالقيود وأسياخ الحديد... تنام على هدير أصوات السيارات... تزكم روائح البول والعوادم أنفها... تعرق... ينسلخ جلدها الرقيق...

اكتب أيها السريالي المتوحش عن كونك عشت أوهام الثقافة والإبداع، الهمس قرب آذان الغواني في ملاهي الليل... بعيداً... لا شيء يقربك من مأساة واقعك سوى أحشائك تنفض روائح الخمر وعرق السجائر... كنت تحلم... أصبت بتخمة انهيارات الحلم لثلاثين عاماً في ثلاثين كتاباً، في ثلاثين دولة، في ثلاثمئة حفلة، في ثلاثة آلاف دولار، في ثلاثة ملايين كلمة سريالية... في ثلاثين مليار حرف عن العروبة... أيها الأحمق غدوت عارياً متقيح الجسد، متبخر العقل، مهدود الحواس والمشاعر أمام حكايتها البريئة... البرعم الذي تفتح على المواجع وآثام الصراع بين القبائل... وشريعة الوأد التي تدفن الفقراء... تداعيات... كنت وما زلت...

«أنا سيد الناس ولغتي سيدة الكلام...

كابوس يقلق المضاجع الآمنة... ولغتي زانية تكشف العورات...

فارس الكسر والتعفيص والرفض للنعم ولغيرها أيضاً، ولكل الكلام!!

ولغتي فرس جامح تهب كإعصار المساء يحيل الديار إلى الهباء والعدم...».

من أنا ؟! ما لغتي ؟! كيف أكون من غير أن أكون!! إنني أعلن فشلي أمام حكايتها... عروس الحياة... كومة القيود

منذ آلاف السنين... كومة القرارات السريعة!! اكتأبت... اضطربت... ثارت... لم تعد تسمع أغنية جميلة!! لم تعد تفرح بعرس الحلم الكبير في وطن غير آمن من غير سوء!! اللعنة!!

* * *

حكايتها:وردة برية ولدت من رحم الفرح في البراري المقفرة... عاشقة للحياة، للنور، تشرب الرياحين من عروق أمها... حورية تسبح في بحر هادئ لم تأته زوابع الصيف... أو أعاصير الشتاء... الأرض كبداية الخلق بعد الطوفان... لكنها لمّا ولدت تحولت إلى طوفان تسيّره الذئاب...

قصة غير موفقة... الطابع فيها رومانسي... يهيمن عليها ثنائية الأسود والأبيض... كما أن اللغة هنا غير مقنعة... قد تؤدي إلى تفكك «تأزم الفكرة»، ومن ثمّ تكون حكايتها ضحية لرومانسية الكتابة... عليّ أن أغيّر السيمفونية... أن أعزف على لغة أخرى ...

* * *

كان يا مكان في قديم الزمان (تحاشياً لمقص الرقيب) أيها السادة الكرام، طفلة اسمها إسراء، ولدت في حجر والديها كما الشمس في حالة الإشراق، أو القمر في لحظة اكتماله... وكان الغول الملعون قد ملّ من وحدته منذ أن عرف بولادتها،

سمع عن جمالها، قرّر أن يخطفها، لتكون ابنته... وربما عندما تكبر يجعلها زوجته!! أخفى الغول نفسه في صورة أمير شاب، ذهب كفارس شهم إلى بيت الراعي حسن والد إسراء، قرر في نفسه أنه سيسرقها عندما ينام والداها، أو أن يضع لهما مخدراً في الشراب، فيسهّل من مهمته... المهم أن يخطفها!! خطفها... أخذها إلى الأهوال... إلى قصره فوق الغيوم... لم ترضع من ثدي... لم تقبل أن تأكل من يد... لم .. لم .. لم.. وبعد ذلك... قرر أن يخطف أمها... وأن يقتل أباها!!

تبدو حكايتها هنا غير مقنعة... لأنّ النهاية يجب أن تكون سعيدة كما عودتنا الحكايات الشعبية؛ أي أن يُلمّ الشمل بين إسراء ووالديها، بعد أن كبرت في كنف الغول... يبحث عنها ابن عمها في البراري... ينادي: «إسراء يا بنت الغول دلي لي شعرك لأطول»،تدلي له شعرها،تخفيه عن عيني والدها الغول الذي يشم رائحة الإنس، تصرخ في وجهه: إنك جئت بالرائحة في أذيالك... ينام... يقوم ماجد العربي ابن عمها، يتناول سيف الغول... يضربه ضربة واحدة، يعود بها إلى أمها التي ما أن تشم رائحتها حتى يرتد إليها بصرها، يعود الماء إلى العين التي جفت بعد أن خطفت!! أقيمت الأفراح والليالي الملاح، تزوجا(ماجد وإسراء)،وعاشا في سعادة

وهناء، وأنجبا الصبيان والبنات!!

* * *

على أية حال، لا يوجد أضمن من الأسلوب الصحفي... على طريقة المراسلين الصحفيين، لأقص حكاية إسراء بخطابية صحفية تثير القراء، تستحث شفقتهم... بعدها بلحظات ينسون؛ لأن التلفاز سيبث أغنية لعمر ذياب وحوله مئة بنت بأشكال وألوان، أو لكاظم الساهر وحوله العدد نفسه في شكل واحد، أو .. أو .. أو .. كلهم في الهواء سواء... كأننا شعب لم يعرف المصائب... حياتنا رقص وغناء والمصايب فوق رءوسنا تزخّ زخاً...

ما زالت حكاية ابنة الخمسة عشر يوماً على حالها... لم يسمح لها الكيان الصهيوني بالعبور، بحجة أنها تحتاج إلى مرافق غير أمها التي لا تستطيع أن ترافقها مسافة مئة متر لكون مسارب العبور متناقضة... ومما يجدر ذكره أن والدتها وضعتها في الشهر السابع، وهنا مكمن الخطأ؛ إذ كان من المفترض أن تلدها بعد تسعة شهور. لذلك حمّلت سلطة الاحتلال المسئولية لسلطة أوسلو التي عدتها المسؤولة عن كل ما يحدث لإسراء بسبب أن هذه السلطة الأخيرة لم تعمل على تأخير الولادة... وصرح مصدر غير مسؤول، لم يفصح عن اسمه، أن بإمكانها المغادرة بشرط أن توقع على وثيقة تقرّ

فيها بأنها لم تعد مواطنة!! في ضوء ذلك وبناء على تضاد وجهات النظر، صرح الناطق باسم حقوق الإنسان بأن...

اللعنة!هذه ليست قصة هذه مأساة جرائد، تغلف الأشياء بلغة خطابية لا تتغلغل إلى داخل الحقائق، كما أنها لغة ركيكة، وغالباً ما تكون مليئة بالأخطاء اللغوية والمطبعية...

* * *

أليس من حقها أن تبدي موقفها الخاص؟!على المبدع الحقيقي أن يجعل الشخصية تنطق بما في داخلها، أن يفجر أعماقها كما يراها في حقائقها الآنة بالصرخات الإنسانية الموجعة!!

هيا لنغير الحكي إلى طريقة أفضل، إلى أسلوب أكثر حميمية عن طريق العزف على أوتار المشاعر الكامنة في مأساة إسراء الجوانية!!

* * *

قالت الأعرابية «يوم ولادتكم بشارة لموتكم»... كلنا سنموت ما دمنا قد ولدنا.. سبحان الذي أسرى بعبده من مكة... إلى الأقصى... فكان المعراج!! نحن في هذا العالم كبش فداء نسري من هنا إلى هناك أو هنالك... لا نعرج إلا إلى المزيد من الآلام... ليس من حق الآباء أن ينجبوا أطفالاً... ربما عليهم أن يستشيروهم قبل أن يلدوهم!!

في ليلة ظلماء هتف الهاتف في ذاكرة «دنيا» ستحملين طفلة،سميها «إسراء»... مباركة هذه الفتاة الفاضلة...!!

ألحت عليه كثيراً... سننجب هذه المرة بنتاً... سأسميها إسراء كما سمعت في المنام... اسمها إسراء... ألا تستطيع أن تقدر هذه البشارة!! البيت بلا بنات كأنه بيت «عزوبية»... كأنه غصن زيتون جاف... لا بد أن تكون الولادة عند الأقصى!!

* * *

تبدو هذه الكتابة ستحول القصة إلى رواية... المساحة شاسعة بين إسراء هاجساً في المنام... وبين إسراء بعد أسبوعين من ولادتها، إذ علينا أن نضيف أسبوعين إلى عمرها في بطن أمها، وأيضاً أسابيع كثيرة قبل أن تحمل بها أمها... القصة طويلة عريضة... قد تطول الرواية في بناء العقد الكثيرة المتشكلة في الأسبوعين من عمرها الحقيقي بعد الولادة...

أعدكم بعد أن طرحت لكم مشكلتها أن أكتب قصتها بطريقة جديدة تختلف عن هذه الطرق التي اعتمدت فيها أسلوبي السردي الذي تعودت عليه طوال ثلاثين عاماً... سأترك القارئ يكتب القصة التي يريدها... ولعل المهم، من وجهة نظري، أنكم الآن عرفتم أن إسراء واقعة في مشكلة كبيرة،

وأنها تبحث عن حل لمشكلتها ! ! أو دعونا ننتظر حكايتها فيما بعد ! ! عندما تكتبها بنفسها ! !

شر البلية ما يضحك!!

التعاسة والسعادة ؟!

سؤال غريب! وإجابة ستكون أغرب!

يا أستاذ، ما رأيك بالسعادة والتعاسة ؟!

تجنبت هذا التساؤل الغبي ثلاثة شهور متتالية... وما زالت تصرّ على أن أجيب؛ لتضع إجابتي في مقالة منفصلة في الجريدة المشهورة، وأنها تحرص على اسمي كحرصها على وظيفتها الجديدة (مراسلة ثقافية في صحيفة الحياة)!!

من يقدر على مواجهة نفسه، فيعري داخله؛ ليقول لنا إنه سعيد أو تعيس؟! بكل تأكيد لن يستطيع أي قلم أن يخطّ أفكاراً واضحة في هذا الفضاء!! هل جننت حتى أجيب عن تساؤلها؟!!

أصرّتْ... فكتبتُ هازئاً بإصرارها الطفولي:

ربما تكون العلاقات مع الذات عندما تبدو ضيقة جداً سعادة... أو ربما سعادة بائسة... أو تشاؤل... وربما تكون العلاقات الموضوعية مع الآخر تعاسة، فتتلون الأشياء بلون قاتم، فلا يكون هناك ارتياح لأشياء كثيرة جداً!!

لا نستطيع الحديث عن فلسفة التعاسة والسعادة ما دام الشيء المشترك بين الناس بحسب رأي الفلاسفة هو الألم، كما لا نستطيع أن نتصور أنفسنا خبراء نفسيين نحلل الآخرين، ونترك ذواتنا المعقدة!!

نشرت الأسطر الخمسة... كأنها وقعت على كنز ثمين... نجحت إذ استطاعت أن تقنع الكاتب الكبير الدكتور علاء أمين كي يكتب لها الأسطر الخمسة!!

* * *

كأن الحياة اليوم غدت أكثر تعاسة من أي يوم مضى!! الهواء الملوث!! الأغذية الملوثة!! الأوبئة المنتشرة!! اليورانيوم المنضّب!! السرطان والإيدز!! المافيا!! بطر الاستهلاك!! الفقر المدقع!! الحروب الطاحنة!! الاستعمار الجديد!! ضياع المراهقين!! سخافة الثقافة الدارجة!! هشاشة الوعي!! بؤس الناس وترهلهم!! تردي اللغة والوعي!! شطط الشوفينية والبراجماتية!! اغتراب العقلاء، وتسول المبدعين، ويأس المتفائلين!! كثرة الهزائم والصراعات!! هيمنة الصهيونية واغتراب فلسطين!! الدعايات الخادعة!! الوقت المهدور!! بلادة طلاب المدارس وعبقرية درجاتهم المزيفة!! استلاب البيوت بآفات العصر!! حزن الآباء على أبنائهم الضائعين بلا سبب!! الأخبار التي

تحمل المآسي والرعب!! القيود الكثيرة التي تخنق عادية الحياة!! البيروقراطية والروتين والفساد!! الخطابات الانتهازية!! المشاعر الكئيبة!! فقد الثقة بالذات وبين الناس... الإنسان... المكان... اللغة... الزمان... الأحداث... الأفكار... الآلة... أشياء كثيرة يمكن أن توصف بالتعاسة... الإنسان نفسه غدا شيئاً تعساً في هذا الزمن، زمن العولمة الخادعة!! حتى أعيادنا صارت بائسة!!

أين السعادة إذن ؟!

الإيمان بالله!! بقايا من التفاؤل والأمل!! إصرار على التمسك بالفضيلة!! حرص على التوازن العقلي!! رفع شعار: «من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته»!! بسمة طفل مشرقة في عيونه!! دخل مادي يؤمّن مطالب الحياة العادية!! دعاء: «اللهم من أرادني بسوء فأشغله بنفسه». دعوة خير من الوالدين أو من أحدهما!! خطاب تقدير من الجهة التي تعمل بها!! رحلة قصيرة تكسر المألوف والروتين اليومي!! مكان خاص تنزوي فيه عن الآخرين تفكر... تقرأ... تكتب شيئاً سخيفاً!!

* * *

في الساعة السادسة أنهضوه من النوم؛ كي يوصل الأولاد والبنات إلى مدارسهم...

قبل الساعة الثامنة والنصف حضّر عشرات الأوراق؛ كي يقدمها إلى سفارة دولة عربية، ليحصل على تأشيرة سفر...

ما بين الثامنة والنصف والثانية عشرة راجع السفارة ثلاث مرات، والنهاية بلا أمل، بل خسر مبلغاً كبيراً جراء الاتصالات الهاتفية الكثيرة إلى تلك البلد!!

أعاد الأولاد من مدارسهم إلى البيت!! خرج إلى قاعة الإنترنت... ثلاث ساعات وهو يتابع ما غمّ وهمّ في انتفاضة الأقصى!!

ذهب إلى المخبز... ارتطم وجهه بقوة في الجدار الزجاجي!! تدفق الدم من أنفه... دارت به الأرض دورتين أو أكثر... عاد إلى توازنه بمساعدة الآخرين!! بعد ذلك السؤال: «ما رأيك في السعادة والتعاسة»!! ضحك من أعماق قلبه، شعر بالسعادة تغمره، تذكّر أن «شر البلية ما يضحك».

وأخيراً، استطعت أن أصل إلى موقع السعادة الحقيقية، فإن كان وجدها الكاتب الفرنسي برناردين دي سان بير في «الكوخ الهندي»، فأنا شخصياً، وأعوذ بالله من كلمة أنا، وجدتها في «شر البلية ما يضحك»!!

زجاجات عطر الموتى

زحف على الشارع حتى تمزقت ثيابه البالية... لعبة جديدة قرر أن يمارسها منذ اللحظة التي أصبح فيها أضحوكة يتسلى بها الآخرون، إنهم لم يعودوا يجدون فرصة لهزلهم بعيداً عن جثته التي تنزاح بطريقة مضحكة في تكنيسها للشارع، تشق مسرباً تعوّد الناس أن يروه في طرق الحمير على الأماكن الوعرة...

هكذا وجد نفسه قبل عامين مرمياً على قارعة الطريق بعيداً عن المدينة المتناهية في الفراغ ومجموعة كبيرة من الأصفار... كأنّ حاله غير طبيعية عندما أفاق من قيلولة، أو إغماءة، أو تخدير، أو ضربة عنيفة على رأسه... نظر حوله؛ كانت الحماطات عارية من أوراقها... تنفخ المغر أجوافها المخيفة... السكون التام يفكك أجزاء الخلاء إلى أشلاء الرعب...

مد بصره يتفحص انحدار المسافات... التصقت بصدره كماشات الوهن... كأنه لم يعد يعرف ما الحالة التي وصل إليها، متعباً، منهكاً... يتقيأ أمعاءه كلها .

انعجنت ثيابه بالعرق الحار، رغم برودة الهواء... ربما بكى بما يكفي لنزف عروقه الحمراء من مسارب الدمع المتدفق على الصدر الخافق كمروحة كهربائية عتيقة... الحالة ميئوس منها...

حالته أم حالة الرجل الذي جاء يساعده قبل أن يحدث له ما حدث؟! ضرب جبينه بيده المرتعشة... أين ذلك الرجل؟! أين تلك الفتاة الجميلة؟! أمنية العاشق؟! ربما كانت حبيبته الهاربة... تدافعوا وراءها... هجموا على جسدها الضئيل... كانت أمها بائسة لم تستطع الهرب!! ما الذي يحدث له؟! ضرب جبينه بيده المرتعشة!! فرك عينيه!! حلّق في المسافات بحثاً عن بقايا البشر الهاجمين على المخلوق الضئيل!!

الفراغ يقرع طبول الصمت في آنية الريح وبقايا الروائح المنبعثة من ثنايا الأشياء الرطبة... حاول أن يرتفع على قدميه... عجز عن تحريك اليسرى... التفت إلى بقايا ثيابه المدعوكة بالتراب!! ذاكرته وحيدة تتحرك في الاتجاهات كلها!!

كان صغيراً، تلهى كثيراً بزجاجات عطر الموتى... الناس يتجمعون من كل الأرجاء، يتناثرون كحبات الرمل، يجلسون في كل النواحي، ينتظرون نهاية تجهيز الجنازة... وهو ينتظر متى يفرغون من سكب الزجاجات على الميت، يلقونها على

الأرض، يندس باحثاً عنها بعد أن يرحلوا... هواية غريبة كانت تسكنه!! هناك في البيت القديم لا تتسرب نملة من بين أقدام الرجال الذين أحاطوا بالميت يغسلونه... تتدافع الأرجل خارجة بوهج الجنازة المحلاة بالرياحين والروائح الزكية: «إنا لله وإنا إليه راجعون»...

كنملة خائفة ينظر إلى الوجوه التي ترفع الجنازة على الأكتف، يشفق على زجاجات عطر الموتى من الأرجل الثقيلة... فتح أحدهم زجاجة عطر صغيرة... رشّها على الكفن... ألقاها على الأرض تحت رحمة الأرجل المشدودة خوفاً من تمايل النعش أو سقوطه... جازف بنفسه... غاص إليها... أمسكها... دحرجته الأرجل هنا وهناك... خرج بالزجاجة من غير غطاء!! رائحتها زكية... رغم أحزان الموتى التي تفوح منها...

يحملونهم إلى هناك... إلى المكان البعيد... لا يعودون إلى هنا بتاتاً... يصعدون إلى السماء... السماء غائمة... والسكون خناجر في الروح الساكنة في قيود الجسد!! ماذا بإمكانه أن يفعل غير أن ينظر إلى بقايا الناس تنزاح خلف الجنازة... أو تنزاح هاجمة على المخلوق الضئيل...

كان صغيراً لا يذكر أشياء كثيرة، ربما هذه الذكرى الحية في حياته الأولى... ما زالت تلاحقه بعد أن أوغل في

السنين... كيف يقص حكايته هذه... تخيل له ابناً صغيراً في سن السادسة، تدافع نحوه، احتضنه، تراجع... لا يستطيع أن يخبره تلك الحكاية القديمة... بل تلك الحكايات...!! كان صغيراً لا يذكر أشياء كثيرة... الوالد المريض. الخروف المريض... انشطار رأسه عندما وقع عن السطح... النساء ومشكلاتهن الكثيرة... حزيران البائس!! أفكار متناثرة تجعله غير عابئ بالأشياء من حوله...

هل بكى؟! لقد ملّ اللعب بزجاجات عطر الموتى... عاد الرجال... شعر أنه يوغل في الصحراء بعيداً بعيداً حتى التلاشي!! يبحث عن الميت في كل الأشياء من حوله... ربما ينام في ذلك الركن... سأل أمه بعد يومين إن كان سيعود أبوه... بكت أمه... احتضنته لأول مرة!! لماذا لا يذكر الآن، وهو جثة في العراء، غير زجاجات عطر الموتى؟! ربما يشفق على نفسه كثيراً!! وربما أيضاً تمنى لو كان ما يحدث له كابوساً في سرير نومه لا حقيقة!!

الإيغال في الزمن الموحش

تكتكت بحذر أعقاب الأحذية المستوردة فوق بقايا الحجارة المرصوفة على الطين الأحمر في الشتاء الحزين... ها هم يقرعون النافذة المغلقة بلا إحكام... ثلاثة يقفون بأسلحتهم على الباب الخشبي المنهك بالندى ورذاذ المطر... هل يفتح النافذة أم الباب؟ سؤال حير الجندي الغريب المنتمي إلى عالم الديسكو وقصّات المارينز...

الوشاية تقول: إنه ينام هنا، والقارعون لصمته يقرعون النافذة المجاورة للباب، يفتحها كشق التمرة، يتأكد من الطارقين... يخرج من النافذة الخلفية المتدلية من سطح السقيفة النائمة على بقايا الأطلال المنحدرة منذ خمسين عاماً، هي هذا الزمن الموحش الذي يجعل الناس يفرون بجلودهم خوف الفناء...

بقايا موقد... بقايا عتبات... بقايا زير تعفن... بقايا حجارة ممتلئة بذكريات الصبا وخرابيش الدجاج لأطفال لم يتقنوا رسم الحروف...

ستة عشر جندياً يقفون على الزوايا مصوبين البنادق إلى النافذتين الجداريتين والباب الوحيد... هنا سيموت إذا بدرت منه أية علامة من علامات المقاومة والتمرد... ثلاث سنوات يخططون لهذه اللحظة... كان بارعاً في اصطيادهم عندما ينفردون... هاهم عشرون أو ثلاثون وربما خمسون جاءوا ليصطادوا واحداً...

ربما تجدون معه بعض العشاق... أو امرأته المنسلة إليه في العتمة... أو طفلاً من أطفاله الخمسة... أو أمه المحدودبة حملوها إليه على حمار أنيس... ربما تجدون بحوزته قنبلة يدوية من أسلحتكم المبيعة بالسوق السوداء، وبندقية قديمة ألمانية، وخنجراً يمنياً، وكوفية زرقاء مطرزة بألوان الوطن!!

ربما لا تجدونه عندما تكسرون الباب والنافذتين، كيف عرف أنكم أنتم؟! فتح مسامات الجدران، نظر من خلالها إلى أشباحكم اللعينة، وعرف أنكم أنتم المرتعبون!! حينها لن يتفاجأ...

لماذا لم يفجّر نفسه بالسقيفة وبكم؟! ربما تجدون ما هو أكثر رعباً مما أنتم فيه... قد تجدونه فوق رءوسكم من كل الجهات، يفجّر بكم القنابل ومعه عشرة رجال... كان عليكم أن تحتاطوا لمثل هذا الأمر، وتتوقعوا أن تكون تحت السقيفة أنفاق تطيح به إلى البعيد، فيعود إليكم محاصِراً...

أقترح عليكم أن تفجروا المكان كله... وننهي الحكاية!!
لكن هذا الضابط يريد أن يتلاعب به حياً؛ يخلع أظافره، رموشه، عينيه، أذنيه، لسانه... وحينها يروي غليله؛ فيقتله خنقاً!!

كسروا الباب والنافذتين، حفروا أرضية السقيفة... نظروا في كل الجهات والمدى... غير معقول ألا يكون هنا...!!
هاجس روحاني قال له قبيل تلك اللحظة: قم الآن، اصعد إلى السطح، راقب الفضاء... كان يشعر بهم قادمين إليه...
انتظرهم حتى شربوا اليأس... رمى إليهم أربع قنابل في كل الجهات، معركة قامت لنصف دقيقة... ماتت منهم وجوه عابسة... وجهه الوحيد الذي يبتسم في حالة الشهادة... وهم يوغلون في الزمن الموحش فطائس لغرباء منتنين؛ جاءوا من بارات الليل؛ ليموتوا هنا بلا ثمن!!

الــدجــاجـــة

الدجاجة لم تعد تبيض بيضاً مسلوقاً...

ولم تعد تبيض كل شهر بيضة ذهبية في جيب طفل...

ولم تعد صالحة بصفتها لاحمة بين فكي سيد البيت...

ولم تعد تعجب الديك الذي يكبس كل الدجاجات عداها...

ولم تعد تقاقي مقاقاة الغزل...

ولم تعد قادرة على أن تحضن البيض، فيفقس بعد واحد وعشرين يوماً...

ولم تعد «تتفعفل» في التراب، فتستر عري البذور انتظاراً لموسم هطول المطر...

ولم تعد صالحة للعب مع الأطفال، فتغسل شيئاً من نزقهم وعصبيتهم التي لا تطاق عند الأمهات...

ولم تعد تناجي دجاجة أخرى، فتشكو لها همومها، وتسمع منها همومها، وتخفف عنها بؤسها بتعاطي بؤسها...

ولم تعد تتعمد أن تتحرش بالديك الذي ينقرها في رقبتها، فتستسلم لجبروته، مستعرضاً عضلاته أمام الأخريات...

ولم تعد تهجم مع بقية الدجاج على «العلف» الذي تعلفه «ربابة ربة البيت، وهي تتنغم بصوت طروب: تيعا تيعا تيعا...

ولم تعد تقفز إلى خمّها المرتفع في جدار السقيفة، بعيداً عن تحرشات القطط، وبقايا المطر...

ولم تعد تتشبه بصوت الديكة، فتحاول التماثل مع صوتها، ولعبتها هذه مكشوفة، إذ مهما حاولت فهي دجاجة، وهو الديك، لذلك ينزعج من صوتها فينقرها نقراً فيه القسوة وشيء من الدلال، بل قد يغازل دجاجة أخرى ليفجّر غيرتها التي يصعب تفجيرها، والدجاج ربما لا يغار...

ولم تعد تتحرش بمذود الحمارة باحثة عن بقايا الحب المتناثرة هنا أو هناك، وساعية أحياناً إلى القفز داخل المذود مما يثير الحمارة، فتنهق عدة نهقات «هاق هاق هاق»...

ولم تعد تصعد إلى كومة التبن، تتفعفل بها، فتمثل ولادة بيضة تبيضها، وتشعر أنها تنساب إلى الجوار، تزغرد «قيق قيق قيق»، فتتوهم أن بيضة جارتها الفتية هي بيضتها...

ولم تعد تصفق جناحيها محاولة الطيران عندما ترى عصفوراً بجانبها يسرق الحب، فتهجم عليه، فيطير، فتتخيل نفسها دجاجة برية، تطمح أن تعلو، أن تتحرر من «الدجاج الداجن»...

ولم تعد تمارس الركض فاردة جناحيها، تمثل أنها تسخّن للطيران...

ولم تعد قادرة على النوم واقفة على رجل واحدة، غامرة رأسها تحت إبطها...

ولم تعد تغسل نفسها في سطل الماء، فتنفش ريشها، وتنقر جلدها بمنقارها، شاعرة بنشوة الماء تتسلل إلى منخريها...

كانت دجاجة متيبسة في التفكير العميق الذي أخذها إلى جهة الموت بعد عشرة أيام من الحمى!!

حملتها «ربابة ربة البيت»، وطوحت بها بعيداً؛ لترتطم بين الحجارة... حينها كأنها لفظت أنفاسها الأخيرة!!

الحكاية التي نسيتها

الرواية الثالثة

١ جدارية

من مذكرات حفيد في القرن الحادي والعشرين

في زمن «اللامبالاة» الهارب من بين فكي الصمت، يصبح المجانين عرّافي أزمنة الموت... ويمكن أن نصفهم، إن قررنا أن نكون مجانين مثلهم،أحياناً، بالعقلاء غير المهذبين...

لن أقصّ عليكم، يا سادة يا كرام، الحكاية العجيبة الغريبة غير المثيرة التي حفظتها عن ظهر قلب في عقلي الباطني المغترب، وأنا أمشي في شارع عام في مدينة النحاس، أو هكذا توهمت... نسيتها بعد ذلك لثلاثة أيام رملية متتالية حزينة. حاولت جاهداً أن أتذكر تلك الحكاية الضائعة في تلافيف دماغي المنهك... أن أتذكر عنوانها، فكرتها الصارخة المعذبة... لم أفلح. كأنني فقدت ذاكرتي المتآلفة مع خوفي...

ربما حاولت، في وقت التذكر الضائع، أن أكتب أية حكاية أخرى سخيفة تدور في اللاوعي عن قصتي الضائعة... لكنني

لم أفلح . قلت لنفسي: ليس المهم أن أتذكر الحكاية بعينها، لأن الأهم هو أن أواصل مغامرة الكتابة بأية صياغة عبثية، لأثبت إمكانية حياتي، وأشكك في موتي، خاصة أن لغتي الإبداعية، أو هكذا أرغب في أن أسميها، أجدبت في الأيام الأخيرة بالقصص المفرحة، أو المتشائمة... لا لشيء معين، وإنما لكثرة الأفكار تهاجمني ليل نهار، صباح مساء، بين بين، قبل بعد... تحثني على الكتابة، فأجدها بطريقة أو بأخرى كتابة غبية سخيفة لا تستحق أن يقرأها قارئ... فأعجز عن الكتابة المهمة... أو أعجز عن التفاعل مع الكتابة التي أريدها أن تكون ناراً موقدة؛ تشعل أوراقي الأبكار، تهزم خوفي، تحثني على التمرد...

مؤخراً، بدأت أرى «اللاجدوى» تسكن الأشياء التي تحيط بي... لم أعد أغضب من أي شيء قدر غضبي على القلم المرتعب من الرقابة، يقبع بين أصابعي لأكتب قصيدة نثرية، أو حكاية شعبية، أو خبراً عن موت القبيلة، أو دراما حرب أهلية، أو سيناريو معركة تآمرية... فيقبض على أحاسيسي مقصُّ الرقيب... فأصمت!!

ما جدوى أن أكتب لكم سخافاتي في أزمنة الاستهلاك؟! لا جدوى!! أقول لنفسي في حوار غير هادئ: فخّار يكسّر بعضه... أغيب في متاهات الضياع والتلاشي بلا خوف أو فلسفة!!

حسناً... حسناً... يبدو أنني أشغلكم بسخافاتي المتآكلة، وربما، عذراً، بسخافاتكم، لأني واحد منكم، أحاور جنوني الغبي... ربما كنت يائساً من أشياء كثيرة... لكنني لست ميتاً... أنا أؤمن بكم... وأحبكم... ولهذا سأقول لكم بعض أخباري:

٢ وصيـــــة

من مذكرات الحفيد

أوصاني جدي، الذي ضيع أبي، رحمهما الله، أن أشنق نفسي بالحبل المجدول من شعر نسائه، علقه في أحد أعمدة سطح سقيفة نائية، لكني لم أهتم بما قال .

قال: إذا خسرت أهلك، فتعلق بنسائك، وإن خسرت نساءك، فتعلق بأصدقائك، وإن خسرت أصدقاءك، فتعلق بأموالك التي ستشتري لك ما تريد، وإذا لم تستطع أن تحافظ على مالك، فعليك أن تشنق نفسك بالحبل الذي أعددته لك في السقيفة ! !

بعد زمن مديد... خسرت الأشياء التي ذكرها، ذهبت إلى السقيفة النائية، في ليلة حالكة السواد، أشعلت نور المصباح العتيق، رأيت الحبل البارد ينتظر عنقي اليابس، لحظات ويكون السكون نهاية معاناتي الطويلة من عذابات الحدود والقيود، انفجارات العداء والاستهلاك، تهريب خاماتي وأيقوناتي، التنافس على استعبادي بين شرق مريض، وغرب

بغيض... عليّ أن أضع الكرسي تحت الحبل الرطب، أصعد إلى فوقها، أضع رأسي في دائرته الذابلة، أنثر الكرسي تحت رجلي، يندق عنقي... أعرق... أبكي... أغيب عن الوعي... يحمل الحبل جثتي،أغطس في جحيم المنتحرين... يقطفون الحبل، فيصطدم رأسي بالجدران...

سأعدّ إلى العشرة؛ لأبدأ طقوس الموت... لا أريد التأمل كثيراً في موتي حتى لا أجبن، فأعود إلى سخافاتي الحمقاء...

أصعد على الكرسي... أضع رأسي في الحبل... أبعثر الكرسي... ها أنا أعدمت نفسي...

العمود الذي ربط به جدي الحبل غدا عموداً هشاً... عيدان السقف تسقط فوق رأسي، أكاد اختنق بغبار الزمن المتهالك... أوراق تتناثر فوق رأسي... مكتوبة بحبر متعدد... إنه خطّ جدي الجميل الذي أذكره جيداً... جيداً... أنزع الحبل من رقبتي... وأبدأ في قراءة بعضها على سبيل الفضول اليائس.

٣ ورقـــة

من أوراق جدي الذي عاش قبل خمسين عاماً

انزع الحبل من رقبتك... كنت أعرف أنك ستأتي يوماً ما إلى هنا؛ لتنتحر بعد أن تضيق بك السبل.

نعم، حسبت حسابي لهذا اليوم من أجلك، كتبت طيلة الثمانية عشر عاماً التي عشتها معك، بعد موت أبيك في أيديهم، آلاف الرسائل، ربما تحتاج إلى عشرين سنة فوق عمرك حتى تقرأها، لكن لا بأس... اقرأ ما تستطيع أن تقرأ منها، خذ الدينار الذي أرفقته بكل ورقة، كل واشرب، وتصدق بما تبقى، البس جديداً ولا تعش سعيداً... لا تدخن، لا تشرب خمراً، لا تنم مع مومس، لا تحضر سينما، لا تكثر من شرب القهوة... فأنا لم أكن مرفهاً حتى أحسب حسابك في هذه الكماليات. لم تكن جزءاً من حياتي، وحياة أجدادي الفقراء..أتفهم؟! أنت فقير، عليك أن تفهم معنى التقشف، وإن لمت أحداً فالملوم أبوك الذي تركك قبل أن تولد!!

٤ ورقة أخرى

كنت أعتقد أنك أحد الحمقى في زمنك، ليس لأنك غبي، بل لأنّ قلبك أبيض...

في زمنكم المتكالب على الضغائن والشللية وصيد النساء والصفقات، ليس لقلبك الأبيض سوى الحمق... فإذا أردت أن تكون أحد فرسان زمنك فكن من ذوي القلوب السوداء: نافق، تأنن (كن أنانياً)، حينها سيقولون عنك: «رجل يملأ هدومه»... فتصير واحداً من أسيادهم!!

٥ وصيـــة أخرى

عليك، يا بني قصدي يا حفيدي، حتى تفهم نفسك والحياة ألا تحمل السلّم بالعرض، اجعل هذه حكمتك في زمن الأوباش!!

ومعنى أن تحمل السلم بالعرض: الغباء؛ لأنه يصعب عليك أن تمشي بين الناس بهذه الطريقة... يجب أن تحمل السلم بالطول... أن تسايس المارة بلباقة ومهارة لتمرّ بأمان... سيحمدون سيرتك؛ لأنك عرفت كيف توازن حياتك مع المشي على جانب الحيط الحيط، وتقول: يا رب، استرها معنا. ومن الأحسن أن تضع رأسك بين الرءوس، وتقول: يا قطّاع الرووس اقطع راسي... حكم جليلة وبليلة، خذ بها، يا بني، نفسك، لتعش مرتاحاً من همك... وإلا فإنك ستنتحر في بحر مالح، ولن تجد من ينقذك، أنا ،يا حفيدي العزيز، والحق يقال، لم أعلمك، الرماية، والسباحة، وركوب الخيل... خفت أن يشتد ساعدك فترميني كعظمة في طريق الكلاب المسعورة... كن ذكياً... واسلم لجدك الساكن تحت التراب، وعش منعّماً بالغباء واللامبالاة.

٦ رؤيـــا

في آخر زمنكم يخرج لكم الصُّفر المدجون بالحديد، ينهبون أرضكم ونفطكم، بمساعدة أتباع شمشون... وستكونون من غير دليلة...

يسومونكم سوء العذاب، لتعيشوا على أعتابهم صاغرين، يأخذون خيراتكم، وأنتم ستقبلون الأيادي والرءوس، وتهمسون بالصمت وضرورة الخوف... يبركون فوق أرضكم، ينتهكون جسدكم... وأنتم تتغابون ولا تشعرون، ضيعتم حكمة الحياة: «الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»... عجيب أمركم في آخر زمانكم؛ تصبحون فلاسفة ومحللين، ولا تفعلون غير ذلّ المهانة، وغوغائية الشجب والاستنكار... عجبي من بلاهاتكم!!

الحكاية التي نسيتها

الرواية الثانية

١ الجدارية الأولى

في زمن اللامبالاة يغدو المجانين عرافين... نصفهم أحياناً بالعقلاء...

لن أقص عليكم الحكاية العجيبة الغريبة التي حفظتها عن ظهر قلب في عقلي الباطني المغترب، وأنا أمشي في شارع عام في مدينة النحاس... نسيتها بعد ذلك لثلاثة أيام رملية متتالية، حاولت جاهداً أن أتذكرها في تلافيف دماغي، أية فكرة من أفكارها الصارخة... لكنني لم أفلح. كأنني فقدت ذاكرتي...

حاولت أن أكتب حكاية أخرى سخيفة تدور في اللاوعي عن قصتي الضائعة، لم أفلح. قلت لنفسي: المهم أن أواصل مغامرة الكتابة، خاصة أن لغتي الإبداعية أجدبت في الأيام الأخيرة؛ لكثرة الأفكار التي تهاجمني، وتحثني على الكتابة... فأعجز. لم أعد أغضب من القلم، يقبع بين أصابعي لأكتب...

ما جدوى أن أكتب؟ ما جدوى أن أغيب في متاهات الضياع والتلاشي..؟!!

يبدو أنني أشغلكم بسخافاتي المتآكلة، وجنوني الغبي... ربما يئست من أشياء كثيرة... لكنني لست ميتاً... أؤمن بكم... أحبكم... سأقول لكم بعض أخباري...

٢ الجدارية الثانية

لما أوصاني أبي، رحمه الله، أن أشنق نفسي في الحبل الذي علقه في أحد أعمدة سطح سقيفة نائية، إذا خسرت أهلي، وأصدقائي، وأموالي... توجهت في ليلة حالكة السواد، إلى تلك السقيفة. أشعلت نور المصباح، رأيت الحبل البارد ينتظر عنقي الجاف، لحظات ويكون السكون نهاية معاناتي الطويلة...

سأعد للعشرة، لأبدأ طقوس الموت... لا أريد التأمل كثيراً في موتي حتى لا أجبن...

العمود هش... أعمدة السقف تسقط فوق رأسي، أختنق بغبار الزمن... الأوراق تتناثر... أوراق مكتوبة بحبر متعدد... خط أبي الجميل... أنزع الحبل من رقبتي...

الورقة الأولى:

كل واشرب!!

الرسالة الثانية:

أعتقد أنك من الحمقى!!

الوصية الثالثة :

لا تحمل السلم بالعرض...!!

خرّافية:

تعيشون صاغرين... عجيب أمركم في آخر الزمان، تصبحون فلاسفة ومحللين...

توقف:

عليك أن تحذف كلاماً ...

الحكاية التي نسيتها
الرواية الأولى

حسناً... حسناً...

لن أقص عليكم الحكاية التي حفظتها عن ظهر قلب... كأنني فقدت ذاكرتي...

لم أعد أغضب من أي شيء قدر غضبي على القلم، يقبع بين أصابعي لأكتب...

ما جدوى أن أكتب ؟! لا جدوى... لا جدوى!!

يبدو أنني أشغلكم بسخافاتي المتآكلة، وجنوني الغبي...

كتبت رواية... مزقتها... ورميتها في الزبالة...

تجمّع لدي مخطوطتان من قصائد النثر... وكانت هذه القصائد تطربنا في سجون بلادي... حمدت الله كثيراً عندما صادروا الديوانين...

انتدبت يوماً ما لتحكيم مسابقة «فن الخطابة «... لن تصدقوا إذا قلت لكم :كان عدد المتسابقين سبعة آلاف... وعدد المستمعين يقل عن العشرين...

أحمد الله كثيراً على حرصي المتين بتأكيد علاقة الأخوة والتفاهم مع الرقابة، إذ قصتي الحقيقية الفاعلة، بعد أن أقنعوني، هي هذه الحكاية!!

أليست هذه حكاية عجيبة؟ أليس معي الحق كلّه عندما مزقت الرواية الهاوية... وفرحت لمصادرة الديوانين غير الشرعيين... أحمد الله كثيراً؛ لأنني لم أجد شفاهية الخطابة في زمن الفضاء!!

كيف تهاوت بقايا الريح في قعر الفراغ؟ وشاهدت وجوهاً تتصارخ يومياً بكل الفناء؟!!

وجـــــوه...

هـذا وجـه، يعلن حالة الأمـن الكبير فـوق بساط موشّى بالورود!!

وهذا وجه، يقرر الرفاه والنعمة والأوراق الخضراء في الخريف!!

وهـذا وجـه، يعلن أن المرحلة هـي عنق الـزجـاجـة، وأن الأخطاء فردية!!

وهذا وجه عاشر، يعلن هزيمة «نتن ياهو» في لغة الكلام!!

وهذا وجه، يعلن أن الكبير هو كبير القلب، وهو الأعمى!!

وهذا الوجه الثالث والعشرون، يجدل السوط من حديد مستورد، ويقرر أنه «للعملاء» ويضحك!

وهذا الوجه، يتمنطق بسجادة الصلاة، وخلف الستارة يغازل «أرامل الشهداء»!!

وهذا الوجه القريب، يتكلم ثلاث لغات، ويعلن أن للوطن لغة وحيدة هي كيف يبني من الرشاوي جسراً إلى المدى!!

وهذا الوجه الخامس والستون، يقبض ثلاثة أو أربعة رواتب من جهات تمتهن السرية!!

وهذا الوجه، يغني بشعارات مسحوبة من دعايات «بيبسي ـ كولا»!!

وهذا الوجه الخامس بعد المئة، يتغنى بتاريخه العريق في كذا وكذا.. ويخفي العلاقة بالسماسرة وبنات الليل!!

وهذا الوجه، يقول بمسكنة مستلة من أثواب النساك: علينا أن نصبر في هذه المرحلة!!

وهذا الوجه الرابع والثمانون بعد الألف، ينشغل بلملمة الضرائب وتسجيل نصفها في المستندات!!

وهذا الوجه العاشر بعد عشرة الآلاف، يمسح الدماء عن وجه الشهيد، ويتصارخ بكلّ كلمات الانتهازيين والسفلة!!

وهذا الوجه برقم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعين، يعلن أنه الأول بعد العشرة في تاريخ تأسيس بارات الليل لخدمة السياحة!!

وهذا الوجه المشحّر التاسع والخمسون بعد عشرة آلاف، يعلن أن الضوء ينير في نهاية النفق المظلم!!

وهذا الوجه، لم يعرف إلى الآن أنه عاد إلى أرض الوطن من شدة المفاجأة التي يرددها دوماً، على الرغم من أنه أصبح يملك عمارة ضخمة وعشرين رخصة، وثلاثة أكشاك، وثمانية أولاد من امرأتين، وآلاف الدولارات، وأربع عشيقات من بنات الشهداء!!

وهذا الوجه المستوزر، يكيل قصائد المدائح في كل المناسبات الرسمية!!

وهذا الوجه الغريب، لا يعرف كيف يصرِّف أموره؛ لأنه مازال يشتغل حارساً للسجن القديم... والسجناء لا يجلبون غير الغم والهم، لكنه يسرق بعض أمتعتهم!!

وهذا الوجه الحادي عشر بعد الأربعين ألفاً، هو المسئول الأول عن قتل ثلاثة تحت التعذيب، وحوكم صورياً، وخرج من الباب الآخر باسم آخر!!

وهذا الوجه الذي يتصارخ في المظاهرة العامة، يشرب الخمر، فينام يومين في الأسبوع بعد كل سكرة على «الكيف» كما يسميها!!

وهذا الوجه الخامس والخمسون بعد الخمسة والأربعين ألفاً، يقرر أن الوطن بلا هوية؛ لأن الناس البسطاء بلا هوية، وأنه سيصبّهم في الهُوِيّات غير المعترف بها على الحدود!!

وهذا الوجه ... الوجه ... الوجه ... الوجه ...!!

وهذا الوجه التاسع والتسعون بعد التسعمائة والتسعة والتسعين ألفاً، هو صاحب كل النساء الدائرات في الحواري، يقرأن الفناجيل لخلق الله التعساء؛ مدعيات أنهن يكشفن حسن الطالع في المستقبل، وأن الهموم لا بد أن تزول، ويقبضن أجورهن!!

وهذا الوجه الأخير ورقمه خمسون ألفاً هو السيد الآن، يرتج... يقترب من حافة الهاوية... يملك الدولارات كلها... وعندما يموت ترث ابنة امرأته الوحيدة بقايا الريح... حينها ستسقط هذه الوجوه في الفراغ!!وينمو وجه واحد للقبح هو «نتن... يا... هو...»!! ثم لا بدّ من أن يولد وجهنا الحقيقي... يحمل السلاح، فيولد الوطن!!

دعوني أعلمكم الكتابة!!!

أهديها إليك بدون مناسبة!!!

لماذا قفزتُ من جرف السياسة كحرذون صعقته صهدة الحرارة وجحيمها؟! كنت قد أعدمتُ قلمي الصاخب بلا رحمة، كفّنته بكل الجنازير الحديدية غير المحرّمة، وصليت عليه: متْ هنا في هاوية الجحيم أرحم لك من أن تتلوث بسياسات الفوضى الخلاقة!! ثمّ ها أنا أقفز من جحيمي الساكن في «انتظار جودو»، يولد من جحيم ساسة أو نجاسة أو نخّاسة بلا ضمائر ؟!!

أية ثورة هذه التي يقودها هؤلاء الأسياد المشتعلون بحمم مجازرنا... كأنكم ورثتم الأخلاق كلها عندما تكون مكبلة في أحافير مستنقعات بيع الكلام وادعاءات الشرف ؟!

يا ليتني قفزت من جرفي حيث أعدمت قلمي إلى أعماق البحر الميت، لأخنق لغتي بمياهه الكاتمة... مالحة كعلقم الخوف في غرف الجنون لكنها أحلى وأجمل... ربما كان هذا أفضل مئة مرة من أن أشكّ للحظة ما بأن تخويفهم في عقر دارهم سيجدي نفعاً!!

يا حادي العيس، كيف صرتَ غِراباً تنعق في بوم جسدي وفي لغة الأموات عندما نعد اليتامى، والثكالى، والمعوقين، والشهداء، والأسرى، والسجون، وأكوام الفساد، وأعاصير الخيانة... هذا وطني يباع الآن بالمزاد... وسيد هناك بقبعة يسخر... وسيدة شقراء ترفع أمام عينية الثوب عن خاصرتها... وها هو سيدي المبجل يقودني من رقبتي ... وجهه بلا ملامح... لكنه يدّعي بأنه السيد المنتخب وصاحب شرعية صك بيعي بلا مقاومة... بلا ثمن... كأنني يوسف الصديق، يخرجه القوم – حيث مروا من هنا – من الجب، وبثمن بخس طرحوه بين يدي كلّ الزاهدين!!

يا أيها المبجل أو السيد المصون... يا صانع الصكوك والمراسيم... يا باعث الخراب والدمار والتشظي... يا أيها الصندوق المحشو بكل النفايات لتعاقب وطني الذي احتضن النار المقدسة، يا نخّاس دليلة، تجرها بحبالك إلى شمشون شارب خمرة دماء أطفالها في قدس الأقداس، يا عابس الوجه، يا صاحب الضحكة الصفراء... من أنت؟! كيف غدوت سيداً وصرنا حثالة؟!! من أي هزيمة جئت، وفي أي الأوكار تربيت... كم كنت أحلم بالوطن بلا خفافيش... بلا جرذان، ولا غربان، ولا تتار... يا ابن العلقمي... يا أبا عبد الصغير... يا كرزاي الحاضر... من أنت ؟!

تدثرت بيأسي، أعدت قراءاتي السابقة: البحث عن سعيد أبي النحس المتشائل... البحث عن وليد مسعود... نشيد الحياة... باب الساحة... الحرافيش... حكاياتي... دواوين الشعراء... مطر، ودرويش، ونزار، والقدس عروس عروبتكم... من أنت؟! أأنت سيد الخرافات جئت لتستبيح الوطن، والدم، والتواريخ، وتشعل الفتنة ولا تحاور...؟! من أي عروبة مستباحة أفقت يا سيدي أم أنت من باكستان أو إيران ؟! بل من أي عار وأي خزي تبرّجت، فصرت سيداً في أزمنة التصهين، والتأمرك، والتشرذم، والشتيمة!!!

دعوني أعلمكم الكتابة ؟!هل تعرفون بأنني كنت واحداً منكم... مكثت ثلاثة شهور وهم يحققون معي عارياً... بصاقهم عفن... ماؤهم ملوث مشتعل الحرارة ومستغول البرودة... ضرب، وخنق، وعصي، ولغة الشتائم... وثلاثة شهور أخرى في مستنقع الزنازين الآسنة... وثلاثة شهور ثالثة في غرف التدخين وأول أكسيد الكربون... وثلاثة شهور رابعة مكبلاً بإتمام سجن عام... زمن يمرّ كأنه روح وريحان... من أنا لا شيء يذكر في جحيم سجونكم... كأنني كنت في جنة... وكان سجاني هو المسجون...!! كأنكم قصيدتي عندما كنت شاعركم... وها هو سيدنا المبجل بالخرافات يبيعنا في سوق النخاسة في أوهام أوسلو بأي ثمن!!

يا سيداً أوغلت في اغتيال رياحيننا، وهي تنبت في جفاف وطننا المقدس، تغتسل بعشقه وبنداه الذي لا نراه، هل وصفت مقاومتنا بالحقارة، وبنادقنا بالمجرمة، وشهداءنا بالقتلى، وأسرانا بكلمات كاذبة، وسجننا وطناً، وقدسنا ليست لنا؟!

كيف تجرؤ – يا سيد حكاياتنا المغتصبة– أن تسقط خيار مقاومتنا بلا وطن؟! من أنت؟!من أبوك وجدك؟ وما ملتك؟!ومن تكون؟! أأنت سيد أم عبد مأمور؟! أحقيقة أنت أم أكذوبة وخيانة؟!!

عذراً... دعوني أتعلم منكم كيف تكون الكتابة ؟!!

وجـــــه حنظلـــــة

لم يعد بوسع حنظلة الفلسطيني إلا أن يُظهر وجهه لعيوننا المبحلقة..كان وجهاً حزيناً... وجهاً طفولياً... باكياً... بدا مؤدّباً إلى درجة أكثر مما نتوقع...!!

كان يحمل لافتة... ظهرت فيها وجوه كثيرة مشوهة... بملامح باهتة!! وجوه صفراء... وعيون خبيثة... وجوه ضخمة... ووجوه أخرى أصغر حجماً، وأقل بشاعة!!

لم يعد حنظلة الفلسطيني ينظر إلى المجهول... إنه يتمرّد الآن على مبدعه ناجي العلي، ولافتته هذه تحمل لنا آلاف الأسئلة... كان السؤال الأكثر وضوحاً: ألهذه الدرجة من الانحطاط صارت أموركم؟!

أسئلة كثيرة... يصعب أن نتأملها في قصة قصيرة: هذه الوجوه البائسة تقودكم... ألا تخجلون من أنفسكم... اللعنة... ماذا جرى لكم؟!!

لم نكن نتبيّن بوضوح تلك الخلفية التي احتضنت الوجوه المشوهة... ربما كان وجه شارون هو تلك الخلفية... كأنه يبصق هذه الوجوه البائسة... وكانت لافتة ناجي العلي التي لم يرسمها في حياته... ترسم نفسها بعد مماته، ومن خلال حنظلة نفسه الذي أدار لنا ظهره زمناً طويلاً...!!

بزغ وجهه الذهبي علامة ساخرة... ويده تحمل لافتة كتب عليها: سلطة الشطرنج!!

ظهر وجه شارون القبيح مجسداً للوحة الشطرنج المخططة بالمذابح الفلسطينية، والوجوه المستنفذة المشوهة مجرد حجارة تدل على جنود بؤساء مجبرين على التمثيل... أما الملك والوزير والقلعة والحصان والفيل، فكانت وجوهاً لديّان وبيغن وبيرس والنتن وباراك وأولمرت...!!

ما أن نتأمل – لوحة الشطرنج التي نلعب عليها – وجوه بعض سياسيينا حتى نشعر بالكآبة... كيف وصل الأمر بهؤلاء إلى أن يضعوا فلسطين في خانة الهاوية ... تجرّها كلاب ضالة فاسدة لم تعد تؤمن بغير مصالحها... وأن الخيانة عندها صارت وجهة نظر!!!

لا أعرف ما السبب الذي جعل وجه حنظلة البريء يكتفي بعلامات استفهام تتناثر حول الوجوه الفلسطينية المشوهة... كنت أتصوره سيشبع تلك الوجوه بصاقاً... ثم يطوي اللافتة فيدوسها تحت قدميه... وبعد ذلك يشعل عود ثقاب... فيحرقها... ويذروها بحذائه وهي مشتعلة فوق مزبلة خربة... ثم ينفض يديه... ويبصق... وبعد ذلك كله... يزوي وجهه عنا... ويدير لنا ظهره!!

وما أن نحاول أن نثني حنظلة عن إدارة ظهره لنا حتى نعجز... نجده صخرة ضخمة تتمنّع على أيدينا التي لم تعد

قادرة على أن تحمل قوتها... في هذه اللحظة بالذات نتوسل إليه أن يظهر وجهه لنحدثه... ونشكو إليه حالنا التي صارت في يد كلاب مسعورة في الفساد... وماذا بإمكاننا أن نفعل في أزمنة الفساد والفلتان والفوضى!!

ما أن تبدو علامات حُسن النيّة في محاربة الفساد، أو بوادر وحدة وطنية – وإن كانت شكلية – يسعى إليها الشرفاء... أو مقالات تهدف إلى فضح الكيان الصهيوني... حتى تبادر الآلة الصهيونية التدميرية فتقتل، وتدمر، وتتقصّد الشرفاء... وما زالت الوجوه العفنة تسرح وتمرح... وتتشدق باسم الوطن ومصلحة المواطن... هكذا تصبح الخيانة والعمالة وجهة نظر!!!

فعلاً... الذين استحوا ماتوا... أو بالأحرى استشهدوا في مثل وضعنا الفلسطيني!!

صارت حكاية «خمسة بلدي» حكاية الوجوه السياسية المتنفذة في سلطتنا... صارت الثورة التاريخية إمعة في أيدي هؤلاء الأكابر في الظاهر... والمشبعين بالسوس الناخر في فسادهم من الداخل... وصاروا مثل الهمّ على القلب... لا همّ لهم إلا خدمة الكيان الصهيوني... وهذا ما جعل وجه حنظلة يلعنهم... ويحرقهم... ويبصق في وجوههم!!

تصبح على خير يا حنظلة... وقد آن للراوي – بعد أن صاح الديك – أن ينام... وفي فمه ماااااااء جم!!

حكاية كنعان وجحر الضّبع

ثلاث دقائق لا أكثر... كأنها ثلاث سنين عجاف... خرجت بعدها فارعاً صدري المكبّل بكلّ القيود، موغلاً في صحرائي الممتدة... من هنا عشقتها... فكان الغبار أغنيتي الحزينة... تنفسته بعمق... شهيقاً... وزفيراً كجلمود صخر!!

ما أجلّك أيها الغبار المبجل وأعظمك!! يا سيد صحراء أجدادي يوم أن كانوا غزاة وشرفاء... أيتها الصحراء، زمّليني ودثّريني واجعلي غبارك يتغلغل في مسامات جسدي الجاف المنقوع في أساطير جحور الضباع... كلّ الزوايا في جحورها موت... وامتداداتها مقابر... وانبلاج ظلماتها بقايا جيف!!

كأنها ثلاث سنين عجاف... وكأنّ كنعان العربيّ آنذاك يشبه يوسف الصديق في جبه؛ تحيط به انتهاكات التواريخ، ومخالب الرّخ، وخفافيش حكايات العراة، وبعض حكايات منامات طفولتي عن الغيلان، والغربان، وبوم حيّنا، وعمّارات القبور، وأكاذيب الأعراب، وقراصنة الليل، وقاطعي طرق قوافل الحجاج يوم أن كانت القوافل في مهبّ الريح!!

ثلاث دقائق مشيتها في جحره على جمر الغضا، يوم أن كان هبل سيد القوم، وكاشف أعراض النساء الكريمات، وحارق ترانيم الرعاة، وهم يسترقون النظر إلى الذئاب في جحور الدّجى المدلهم، وفي أذيالها ضباع تشتعل عيونها، تنتظر بقايا الوليمة... سرت حينئذ معها، بعد أن بالت على وجه أوهامي، وأضغاث أحلامي، وسكرتي بعد خمس وعشرين سنة؛ فحدثت نفسي: «فلتجرب!!» .

جربتها ثلاث دقائق فقط، لا أظنكم ترغبون في أن أقسم لكم بأن الوقت ثلاث دقائق فقط... كأنها دهر أو عصر جليدي... وكأنّ حكاية كنعان تشبه حكاية أيوب عليه السلام!! كيف تصبرتَ ذاك الزمان ؟!! وكيف شرَدتْ نباهاتك، وما عدت تعرف من أنت ؟!! كيف ادلهمّت حماقاتك، وامتسخت نفسك إلى الأماسيخ كلّها... وانقبضتْ روحك ثلاث دقائق... وكدتَ أن تودّعها... فتغدو بقايا حياة... كانت هنا في هذا الجسد الممدّد، وغادرت أو كادت... ودموع حكايات أمك توحي بأن الحياة باقية، وأن يونس- عليه السلام - لم يمت في جوف الحوت...!!

مشيئة الله وحدها أنقذتني من جحر الضبع... لم أتهوّر!!

كنت مغزولاً بآمالي، ولم أصح إلا بعد أن شُجّت جبهتي بعُرض الحائط ... ماذا أريد من سيد الكراسي المبجلة،

وسادن اللوائح المنتنة، ومُخمّر البقرطة المجهضة، ومعاقر كلّ ما شحمه ورم!!

هو كنعان العربي، سيد الصحراء، وأحفاده من جدهم إسماعيل، يوم أن حمَله أبوه من حِبْرَى، فزرعه في وادٍ غير ذي زرع؛ فزمزم الماء، وارتوى الرمل!!

لم يبتسم سيد الكراسي، وقبل أن أنبس ببنت شفة، تفتقت عبقرية «كراسيه المتضخمة»:

– اسمع، ما تريد قوله سيدخل من هنا (وأشار إلى أذنه اليسرى)، وسيخرج من هنا (وأشار إلى أذنه اليمنى)!!

– عندي خمسة وعشرون سنة، ولي ثلاث وثلاثون حكاية، ولم أكن مكدودا...

– الجمل الثلاث التي قلتها، لم أسمعها، ولن تدخل إلى اعتباري، لأنّي لم أعِها، ولن أعيَها...!!

انتفضت من مقعد متجمّر ،كأنّ انفجاراً هزّ قاع الأرض، فطفتُ على سطحها...

وقبل أن أغادر، عامت نبرة من يصحو في جحر الضبع، في لحظة أن أمسكتْ أنيابُ هذا الضبع بزمارة رقبته... أي ضبع حينئذ بإمكانه أن يتمالك أعصابه أمام سطوتك يا كنعان، وأنت تدرك أن الحياة مجرّد كرامة، وبعض أنفٍ له أنَفَة، تعشق الغبار؛ عندما تكنز الغربان تفاهات الثعالب ؟!!

كانت هناك حكاية، وأيضاً كوابيس تترنح في المنامات، وأخبار عن امتدادات مكانٍ يحتفي بأعقاب التواريخ، ويدّعي أنه يمتطي قمة الهرم!! وكان كنعان غائباً عن الوعي، يشمّ رائحة الضبع وجحره المنتن... وفجأة صرخت الحياة في جثته، فهبّ كأنه عنقاء تغوّلت، لها أنياب مخيفة، فعضّت الضبع في مقتله... مات الضبع أو ربما غاب عن الوعي... فأي ضبع جاهل أو غبيّ بإمكانه أن يفترسك يا كنعان؟!

صاح الديك قبيل فجرك... كانت حكاية جُحر الضّبع أكثر من خرافة... وربما أكثر من تفاهة موغلة في روائحها المنتنة... بدا فمك كأنّه امتلأ بالماء... فتوقّف حينئذ عن الكلام غير المباح!!

يومها قرّر أن يعتزل كتابة الحكاية؛ فشيخ القبيلة قد تمادى في غيّه!!

فوق الرف

إلى الصديقين: فضلان وخيران ...

مع مودتي!!

ثمة رجلان ساخران جداً، يجلسان في غرفة واسعة جداً، فيها طاولة مساحتها مستديرة جداً، تكتظ بوجوه ذكورية كثيرة جداً، ولا أنثى -على أية حال- في هذه الغرفة؛ حتى نساء الجن – ولله الحمد على هذه النعمة الجمّة – غادرنها منذ زمن بعيد إلى غير رجعة، ولن يفكرن يوماً – فيما أظن، والله أعلم – أن يصطدن فارساً لأحلامهن الوردية من بين هذه الوجوه التي انعجنت بخميرة غيابها، وملح بقايا حياة في ملامحها، التي ولّت هي الأخرى إلى غير رجعة؛ لكن... وللاستدراك هنا – كما عودنا البلاغيون في قراءة الشعر الجاهلي – حسابات كثيرة في عجائب الأزمان!!

لكن العقول – فيما يبدو – كانت ضاجة بخيالاتها، بذكرياتها أيام الفحولة، يوم كان السيف يصول، ويجول، ويقول: هل من مزيد ؟! ذاكرات مشبعة بالذكريات، بصور نساء شابات وهنّ عاريات يعانقن شباباً بل فحولاً؛ جاءوا من عمق الصحراء إلى

ضباب لندن، أو متنزهات باريس، أو أبراج نيويورك، أو شوارع القاهرة في أيام الخديوي توفيق، أو الخرطوم وسمرتها اللامعة مطبوعة على خدود نسائها الجميلات!!

كانوا فحولاً، وكنّ بلا فحول؛ على الأقل فيما نتصور دوماً: أننا أهل الفحولة، وإن تواضعنا، فنحن نبعُها الذي امتدّ في شرايين هذا الكون، ودليلنا أننا خير أمة أخرجت للناس...!!

كانت الغرفة تصدر أصواتها من جوف الرئيس، أو مساعده، أو صاحب اقتراح، أو معلق على اقتراح، أو من فوهة متفلسف؛ لا يترك شيئاً يمرّ دون أن يهمز، ويلمز، ويتتافه جداً، فيذهب كلامه أدراج الرياح... هكذا دوماً أحمد ربي على نعمة كبرى أنعمها عليّ، وهي أنني لم أكن يوماً من الأيام خلال خمسة وعشرين عاماً أجاور تلك الغرفة، من بين أعضائها، طبعاً بحكم القانون القراقوشي، لا باختياري، وما أكتبه لكم هنا هو خلاصة حكاية الرجلين الساخرين اللذين يجلسان في زاوية الغرفة حول الطاولة المستديرة، يرقبان، ويستمعان، ويتأملان؛ ليرفدا سخرياتهما، وتخابثهما بوقودها الذي يحيي الحياة وهي رميم، ويخرجاها من تلابيب عناقها للموت؛ فكأنّ ضحكاتهما وضحكاتنا معهما خارج الغرفة الكبرى في أخرى صغرى مغلّقة، عنقاء تولد في قسمنا الذي اختص بالنحو، والصرف ،والبلاغة، والأدب، والنقد، وهلمّ جرا...

زوجتي، بدأت تذكرني بضرورة مشوار المشي، نمشي مرة في الشهر حول الحديقة الكبيرة جداً، هي دائماً تسعى إلى اضطهاد توهج حكاياتي، فتقتل ملكة الإبداع لدي، فتغدو كتابتي في درجتها الصفرية، وحينئذ، ربما أقبل أن أكون حول الدائرة المستديرة جداً في الغرفة الكبيرة جداً، في قسمنا الكبير جداً، بين تلكم الوجوه المكتظة بمواتها أو سباتها؛ ضحية لتلكم التخيلات عن الماضي وفحولاته؛ إلى حد أن تقع سبحتي من يدي، ولا أشعر بها، وأبقى أحرك يدي، كأني أحملها، أنظر إلى لونها الفاقع ممدة على الأرض، حتى رفعها، يغدو جزءاً من آلام الظهر وانحناءاته المزعجة... كل هذا أخف من تعمّدها أن تؤذي كتابتي، فتصفها بسخافات القضاة، وقصدها أن «الفاضي يعمل من حاله قاضي»!!

كان الرجلان الساخران، اللذان يجلسان في زاوية الغرفة حول الطاولة المستديرة، يرقبان، ويستمعان، ويتأملان... وهما – أيضاً – وجهان من تلكم الوجوه الصاخبة بالييباب؛ لكنهما أكثر حيوية، وأقل اضطراباً نفسياً، والسبب أنهما يمارسان –عن غير قصد أو وعي منهما – الحكمة الصينية المشهورة: الضحك يديم الحياة على الوجه!! وبكل تأكيد لا علاقة للضحك بأشياء أخرى تدوم أو لا تدوم في غير فضاء

الوجه تحديداً، أقول هذا حتى لا يظنّ فضلان أو خيران، أنهما ولدا لتوّهما من حكايات «ألف ليلة وليلة» في بلاد «واق الواق»؛ حيث تثمر الأشجار نساء جميلات!!

يتأملان وجه العبث السائد، أعني تلكم الوجوه التي فقدت بريقها، ولم تفقد بعدُ تجربتها الممتدة في الحياة، كانت الوجوه وجهاً يميل إلى الصفرة، يمتقع بلون صحراء ظمأى، تجمدت رمالها، ويبست أعشابها، وجفت ينابيعها مع تنوع في تجاويفها الخربة، ملامح ثقافية واضحة، خبرات ربما تتظاهر أنها ما زالت حية، أحزانها تندف عرقاً خفيفاً، يأساً مولوداً من رحم المواد الحافظة في الأغذية المعلبة...

كان لا بدّ من أن أنهض؛ لأشاركهم - هنا حيث أكتب حكاية «فوق الرف»- إفطار الصباح، ألم أقل لكم : إن زوجتي تكره لغتي ؟! وأن «الفلافل» الساخنة عندها - إذ تدعوني إلى تناولها قبل أن تبرد - أهم من كل كتبي، وإذا بردت، ينبغي أن أشعرها بحرارتها، حتى لا تغضب، فتشير إلى أن سخافاتي أي كتاباتي هي التي تفسد كل شيء، بما في ذلك سخونة «فلافل» الصباح، فدعوني الآن رحمة بي، أن أتوقف؛ لأتابع معكم الحكاية فيما بعد، إن بقيت -لديّ -بقايا تنفس للإبداع، بعد «سندويشات الفلافل»!!

* * *

ثمة رجلان يتأملان وجوهاً تمتلئ بالتلاشي، وأصواتاً منتحرة كأسماك الشلالات الراكدة، وكراسة كبيرة جداً، تدون فيها ملحوظات اجتماع مرهق بعبقريات التصويت، والغرفة الكبيرة جداً تبدو أكبر من حجمها، والطاولة البيضاء المستديرة الواسعة تزداد اتساعاً، والأضواء تخفت كثيراً في العيون الناعسة إن لم تمت في العيون النائمة ... يوشك الاجتماع المذبوح بسكاكين الروتين والخوف من البدع، أن يطوي نفسه في الكراسة بعد أن تحبّرت صفحاتها البيضاء بكتابات عريضة، لا إبداع فيها بتاتاً...!!

همس فضلان عابثاً كعادته في أذن خيران:

انظر إلى هذه الوجوه جيداً؟!

لفكرته ألف معنى ...كاد يتبع سؤاله ضحكته المجلجلة في الغرف الصغيرة المغلّقة كعادته، لكنه حذفها، خنقها، وأدها، ذبحها بسكين مثلومة!! وكان على فضلان – كعادته الفكهة – أن يرد الصاع بصاعين، فتأمل في ثوانٍ ما قاله فضلان، فأعاد رأسه إلى الوراء، وأماله بدقة متناهية، ظناً منه أن تلك الوجوه ربما تلتفت إليه، فتتهمه بأنه يعبث في وقت طرح المواضيع المصيرية؛ لذلك حافظ على توازن اقترابه من أذن فضلان، تاركاً لعينيه التأمل في الوجوه، لتستر عري كلماته في أذن صديقه اليسرى، هذه الأذن التي عادة ما تهمس فيها

عبقريات الجان العتيقة، وهذا ما يفسر مؤلفاته الكثيرة في الشعر الجاهلي....!!

همس خيران، كما تهمس جنية مؤدبة:

كل هؤلاء لا يضاجعون ....!!!

أيّ مكان حينئذٍ، سيتسع لضحكة فضلان؟! وأيّ جنازير بإمكانها أن تلجم شفتيه، لتمنع انفجار ضحكة، تبيح دم الأشياء كلها، بما فيها مراسيم الافتتاح الرسمية جداً ؟!!

سحلت الكراسة الكبيرة جداً عن الطاولة المستديرة جداً، تلاشت الوجوه في النظر إليها، عمت الفوضى معلنة تلقائياً عن نهاية الاجتماع، قتلت الفوضى الهروب الكبير من الغرفة الواسعة جداً، بدت السماء الماطرة – بعد عشر سنين عجاف – أكثر ألقاً وألفة، فغدا مكتب خيران(الغرفة الصغيرة جداً) يضحك، فتهتز جدرانه الأربعة أربعة أيام متصلة، وربما سيقهقه أياماً أخرى!!

قلت لهما :

حكايتكما هذه تصلح مادة لرواية جديدة، أبطالها وجوه لا تضاجع، تستعيد ذكرياتها!! سأسميها «فوق الرف «!!

يبدو أنني كتبت مقدمتها .

ضحكنا ....

وبدأت أكتب حكايتي في ظلال حكايتهما؛ فأهديها إليهما من منظور رد الجميل إلى أهله!!

التنفس حلماً

قصص قصيرة جداً

١ شذرات اللغة

من جراحنا الخافقة بأحزانكم الضاجة بآهات صغاركم، تولد اللغة حزينة، باكية، ترثي عالماً كئيباً...

كيف تبدأ الكتابة ؟!

لا تُعرف الأشياء على حقيقتها... كأنّ الغيوم الداكنة تتلبّس ضوء الشمس الشتائي...

تبحث اللغة عن دمعة طفل تهطل عند المغيب، تتخطفه أيدي قراصنة الليل... لكنه لا يبكي... هكذا اللغة تتبخر في غير الأحزان!!

تورق اللغة عندما تثلج السماء في الطرقات الحزينة... فالشتاء طارق يقضّ مضاجع الجفون الذابلة في العيون الغافية... ثم تنتعف الحكايات من بين الأحزان الغاضبة... إذ الجرح لا يلفظ إلا أحشاءه الفاسدة؛ لتبقى جواهره تبحث عن ابتسامة فرح على الوجوه الحزينة...

اللغة حروف لا تتوانى أن تكون بلسم الجائعين... أوراق الخريف... آية العشاق... حكاية الطفلة الصغيرة تبتسم عندما تفقد وجه أمّها... كأنها ترى وجه اللغة ندياً باحثاً عن الأفواه الرطبة ببقايا البسمات البعيدة.

الأشياء عندما تبتسم للورود الصغيرة تكتسب ألواناً شتى مألوفة، وفرحة تبحث عن الحياة بإصرار...

كأنّ اللغة الدافقة بأفراح الصغار «البسيطة» طيور تغرد بعيد الفجر... وأنا كنت وما زلت الطفل الحانّ إلى بسمة أمه الموجعة بنوبات الأزمنة...

هل الفرح محرّم على الوجوه الصابرة ؟

لا غنى عن الفرح!! لأنه بوابة عريقة إلى التعلق بالحب والحياة... ربما علينا أن نعيش أيامنا كما نحب... فيكون الحب وحده حينئذ لغتنا الأصيلة.

هكذا تبقى وجوهكم أملاً ضاجاً بالحياة؛ لتنتصر على أعماقكم الضاجة بالألم والحزن والبكاء الصامت... إننا نبدأ من بداية أليفة... من بداية القدرة على العطاء.

كأنّ اللغة تتوهج بأفراحكم... بالرغم من أحزانكم الأبدية!!

إلى التي جعلت حياتنا أليفة رقيقة!!إلى إسراء!!

١٧/ ٧/ ٢٠٠٠

٢ صديقي

ها هو يقفز من جنازته... محمولاً على أكتافنا... ثقيلاً كان... وكنا نتباطأ في السير... يقفز فرحاً، يسخر مني... لماذا تتباطؤون أيها الكسالى في المسير إلى قبري البعيد عن سخافاتكم؟!! توسّط سقف الآلة الحدباء، لفَّ شيئاً من

كفنه ككعكة أمي فوق رأسه، خفّ وزن النعش كثيراً... صار يجري، ونجري معه... وما أن وصلنا حتى طار، ليتمدد ملوّحاً لي بابتسامة ماكرة!!

٣ الجنـــوب..

«الجنوب، الجنوب، الجنوب...».

ترن هذه الكلمات في رأسه كناقوس عُلّق في رقبة جمل أجرب هائج!! كيف يتمكن من السباحة في بحر من الرمال، لا يعرف له نهاية؟! هل بإمكانه أن يصل إلى هناك بعد شهرين من المسير المتواصل، فيخبر ذلك الفلاح العجوز أن الكارثة أو الزلازل على وشك الانفجار؟ هذا إذا وجده حياً!!

في المرة الأخيرة التي رآه فيها قبل عامين، قال له العجوز: «إذا حضرت في المرة القادمة، لا تنس أن تقرأ الفاتحة على روحي في كل هذه القبور الشاسعة»!! حينها قال له: «لا تفكر كثيراً بالموت، فأنا إن وصلت إلى الشمال سالماً، فبإمكاني آنذاك ألا أفكر بالعودة إلى هنا!! هذا إذا نجوت ووصلت إلى هناك!! ربما عليك أنت أن تبقى سيداً هنا؛ لتزرع، وتحصد من الفراغ وإلى الفراغ، حتى بعد أن تموت»!!

ها هو الآن يفكّر بالعودة بعد أن علم بموجة المستعمرين الجدد العازمين على أن يذهبوا إلى هناك بالذات... ويزلزلوا

التاريخ كله... العجوز المسكين لا يملك قدرة، تحرك ساكناً إن بقي حياً، وأولئك المترحلون لديه يميلون حيث مالت الريح... بقايا قديمة تكرّس ولاءها لكل الغزاة... وهو شيخ عجوز يقص حكايات التاريخ كلّها من غير أن يعرف القراءة والكتابة، كما أن المذياع قد حرِّم عليه... هاهم قادمون من الفراغ؛ ليمسحوا بقايا العجوز والتاريخ... ويكتبوا خرافة تاريخهم المزوَّر...!!

فجأة وجد نفسه يخرج من حلمه... كابوسه... يجد نفسه مكبّلاً بالحديد، يهجم عليه أحدهم بوجهه الأصفر الغريب... يردد بعربية مكسرة: «ستعرف مين يضحك في النهاية».

كان يدرك أن الضحك مسألة نسبية... لكنه يعرف يقيناً عندما غسلوه ببصاقهم المشبع بالتبغ والخمور والفيروسات أن هذا الوطن لن يتسع لهم أبداً... وأن مصيرهم إلى الفراغ... وأن العجوز لم يكن يزرع الفراغ بالفراغ كما تهيّأ له يوماً... وأن نهاية الصهاينة أقرب مما يتصور!!

٤ مشهد تلفازي...

الزقاق يختنق بالأرجل والملابس العتيقة... البرودة تلتهم الوجوه المدعوكة برغوة أحزان الشتاء ورؤوس السنين... خارطة مشوهة لفئران داكنة تموج بها الخوازيق البالية...

امرأة حبلى، تحمل طفلاً، تتسول فتات الأشياء...

طفل منكوش الرأس، يبيع بقايا تبغ رديء... ومستكة...
بائع محدودب، يبيع الأحذية المنتنة...
شرطي «على البركة» ،يشعل سيجارته...
بائع «الهريسة» العجوز، يأكل وجه امرأة يخطو مبتسماً...
مجلات قديمة سخيفة، يبيعها مساعد الحلاق...
رجل يتلطف الناس، انقطعت رجلة اليمنى...
فتاة غجرية بثوب رث، تفتح الكف لرجل يلبس طربوشاً...
برميل نفايات معجون بدهون لعاب قطط أواخر الليل...
صرة غريبة... يعبث بها... يراقبه الآخرون بشراهة...
صوت انفجار رهيب... جثث تتسطح في كل مكان... طفل يصرخ... جسد يتراخى... رجل يشرب خمراً... يتعرى... يبصق كرشه في الشارع... أصوات بعيدة لزوامير الخطر...
المذياع يهذي : «المعارضة هي المسئولة عن الحادث»...
بيان المعارضة : «الأنظمة هي المسئولة عن الحادث»...

٥ مشهد واقعي

نظر الجزار إلى الخراف، وهو يأكل شفتيه المتورمتين... يكمش الخروف الأول كمشة البرسيم الناشف...

يمسكه الجزار من عنقه، يغطِّس وجهه في سطل الماء، يشرِّبه مرغماً، يرفعه، يمسكه اثنان، وآخر يحمل «الكلاّب».. يبطحان الخروف على الأرض... «ماء ماء ماء»... يحز رقبته، يتدفق نهر الدم الحار... يتخثر تدريجياً...

الخراف الثلاثة الأخرى تنظر في المدى... تتكسّر النظرات المتناثرة... فضاء اللون الأصفر... آلاف علامات التعجب، الاستنكار، الشجب، الاستهجان... عيون الخراف تبدو مستسلمة!! ثم...

خروف قال: ماء ماء...

خروف آخر شمّ عن بعد مؤخرة الخروف المسطح على الأرض، فهز رأسه...

خروف ثالث نطح الجدار فانكسر قرنه...

نعجة تغيب في قسم «الحريم»، تخيط من دموعها مرثية...

هذا هو!!

الشقاء في السكاكين يقطع اللحوم في القرابين... ولا يحطم الصنم!!

٦ مشهد فنتــازي

وجه يستبيح الوجوه كلها... أرض خصيـيـيـيبه... وجوع أخرس... آمال تتهاوى... أقلام تتبطر في التهام المدائح...

أناس يولدون من رحم الخوف، ثراؤهم التصفيق والمبالغة فيه... أغانٍ عاطفية ورسمية تتبطبط من التخمة... نشرات أخبار ثملى بالخراب والأضاحي... لجان فوق لجان تحت لجان... احتفالات بالهزائم، آسف، بالتواريخ الكثيرة...

أمن و«جزمة» وبصقة وملف أحمر وكاتب قصيدة... علوم وفنون وأوراق رسمية ووظائف بيروقراطية... ولادة وموت ونفاية... صدقة وسرقة ودعاية للصابون الرخيص... خطبة عصماء ورأي في الجريدة الرسمية ومقرر في الجامعة... مائة وجه كبير وبقية الوجوه صغيرة...

أناس يخطبون بحرارة... وأناس يصفقون بحرارة... وأناس يتوشوشون ببرودة...

وجه كبير منذ الولادة... يبقى... يموت... يتجدد بالوراثة...

وجه صغير منذ الولادة... يبقى... يموت... يتجدد بالوراثة...

وجه يخطب... ووجوه تصفق... وولائم كثيرة...

٧ همست ليلى

همست ليلى في أذن أمها فاطمة: «سأذهب إلى جدّتي مريم... ماشياً في طريق الغابة الموغلة في بعدها ومخاطرها!! لن أخشى دبّاً... أفعى... غولاً... أو حتى ذئباً!!

لم تفاجأ الأم!! فقد تعوّدت على أن ترى نصائحها الأبوية تُضْرب دوماً بعُرْض الحائط... كبرت ليلى!!

ما أن قفز أمامها مقنّعاً بوجه أمير متعالٍ مزيف، حتى شدّته من أذنه اليسرى... وهمست فيها: «العبْ غيرها»!!

تصنّم الذئب مشدوها، يبحلق إلى يديها المعقودتين خلف ظهرها؛ كأنها «حنظلة»!! تسير بهدوء غير متناه، يقهر كلّ جوارحه المتوحشة!!

اقتربت ليلى من جدتها المريضة... حطّت فمها على أذنها اليمنى.. همست: «أنت جدتي..لن أبحث عنك في بطن الذئب!!».

كبرت ليلى!! لم تعد تهمس... صارت تصرخ في وجوه الجنود المدججين بالسلاح، يقبعون كعناكب الليل على «المحسوم» بين بيت لحم والخليل: «لن أموت... سألد طفلتي الجميلة على الرغم من أنوفكم... سأسميها: ليلى الفلسطينية»...

همست ليلى... قالت ليلى... صرخت ليلى... صمتت ليلى... أنجبت ليلى وطناً بحجم ذاكرة «حنظلة»!!

٨ بصفة أكبر

فجأة في منتصف عام ٢٠٠٥، تدفّق وجه «حنظلة»، الذي لم نره منذ أن ولد في النكبة الأولى!!

كان وجهه القمحيّ الأفتح قليلاً من وجه «ناجي العلي»،الذي أقسم أن يفضحهم على الحيطان، إن لم يجد صحفاً تنشر تعرية «حنظلة» لقبحهم!!

الآن، غَيَّب هذا الوجه الغاضب، الذي نظر إلى فلسطين المحتلة كلّها... قفا السخرية السوداء، ويدَي العجز المعقودتين خلف ظهره، ولغة مشتتة؛ تفضح قبولنا بأنصاف أعشار الحلول الممسوخة!!

وجه يتجلى للمرة الأولى... يقترب كثيراً... تتضح تفاصيله المتربة... فجأة يتحول إلى فم ضخم... لا يصرخ... بل يبصق!!

كانت بصقته أكبر من حجم البحر الميت... وكنّا نغرق!!

٩ هزيمة صغيرة

منذ أربعة أعوام... يحاربون... لم يتركوا صغيرة أو كبيرة عن فساد ذلك المسئول الأكاديمي الكبير... إلا ودوّنوها!!

يكتبون في عشر صحف محلية وعالمية... تصل خطاباتهم إلى مسئولين أكبر منه...

كانت الهزيمة الصغيرة أكبر مما تتصورون...

بدءاً، قال الحاكم العام: «لا عصمة لفاسد، ابتداء مني على قمة الهرم... وانتهاء بأصغر فرّاش على بوابة دائرة الجمارك العامة».

صدقوا، فشمروا عن سواعدهم، وحاربوا...

مؤخراً، كما هي عادته في مئات الخطابات، قال الحاكم العام: «لا عصمة لفاسد، ابتداء مني... وانتهاء بأصغر فرّاش...».

زحلق الماء في جوفه، وأردف بعد أن ابتلع ريقه المزوَّر: «لا نريد كلاماً عن الفاسدين في الهواء الطلق... نريد وثائق... وثائق... وثائق»!!

هُزمنا هزيمة صغيرة... وضحكنا على طريقة «شر البلية...»!!

كيف تريدون من «حنظلة» وثائق، وجلكم فاسدون؟!!

١٠ يمامـــة..

كيف لم تسقط البوابة المفضية إلى آخر الهباء كورقة خريف يابسة، لتهطل من صدئها الوجوه الغريبة الراكدة بين أنياب هيكل عظمي يابس؟!

هذه الوجوه لا تعني إلا هياكل تجلدت فأضحت تتحرك بأرجل عنكبوتية متيبسة، وأحافير العيون تغور بلا بقايا اللون الأبيض!!

كيف تعيش البقايا، وهي لا تألف غير التلاشي في أبواق تتراقص على درجات زقاق معتم، لم تدخله الأرجل منذ مئات السنين؟!

بيوت غريبة لا يُرى فيها غير نوافذ بحجم اليد.

المدينة تتطاول في الفراغ...

بقايا بشرية...

آبار تقذف أحشاءها إلى الفراغ...

فتتبخر بقايا الشوارع من بقايا العرق المتساقط عن الأحذية!!

تلك وجوه تهرب إلى الظل المنصهر بلا رحمة.

ولا صلة هنا بين البقايا وآخر الفضاء... حياة عجيبة غريبة!!

فقط، هناك حياة تذوب رويداً رويداً رويداً... في طبق يتحمّص على أشعة الشمس واشتعالات الأرواح التي تتقيأ خوفها في قرار بئر عميق...

يتحرك بطيئاً...

امتلأت رئته بالهواء المحروق...

يدوس بنزين السيارة القديمة، ترتعش، تجعر، تتوقف بعد عشرة أمتار تقريباً.

يحاول مرة أخرى، تهمر، تنتفض، تسير بحركة ثقيلة، كأنها قوقعة أو سلحفاة أو عربة يجرها حمار هرم...

تتوقف...

ينزل منها إلى الشارع المدهون بالقار، وبقايا الروائح الكريهة ..

أليس من الغريب أن يطير طائر في مثل هذا الصهد من الظهيرة ؟!

كان «عجل السيارة» قد نفض هواءه بعد أن دهن جلده بدماء «يمامة»، فانشوى جلدها بصهد القار. لتوها ماتت... بقايا دماء رطبة...

سار في الفراغ يقذف أحشاءه، والدنيا تدور به في دوامة الرعب المحترق...

ماذا لو كان هو اليمامة، وكانت هذه السيارة الخرفة شاحنة كبيرة أو قطاراً أكبر من حجم الفيل؟!

١١ كابــــوس

هذه الحالة العجيبة الغريبة الرهيبة الكاسرة المتوحشة المرعبة القاهرة المصارعة الكابتة المهيبة القاتلة الدامغة الفاضحة الصارخة الشارخة الراجفة المتعبة الممزقة المتورمة المعدمة الهادرة الآكلة الذابحة المقطعة المهشمة المخوزقة تدفع به إلى التوازن... لا شيء غير التوازن... لا شيء غير بقايا التوازن...

جسد يترنح فوق جناح غراب أعمى، فضاء يمتد في أعماق كابوس أسود، مخيلة آلية تصرخ في جدران صماء...

من يبحث عنه هنا ؟!
من يجرؤ أن يعلن موته ؟!
كيف ترى نفسك تغوص في التلاشي؟!
جسد يهذي، يترنح، يعلن مأساته:
بقايا توازن...
بقايا حنين...
بقايا ثقة...
لا شيء هنا يدعو للرعب... فقط تأكد أنك أنت الأنت...
وكن حزيناً على راحتك... ابكِ المواجع... الطفولة... بقايا الدموع... آليتك...
لا تحزن كثيراً عندما تمارس القتل...
أو تشرب الفاجعة...
أو تأكل الأوراق...
أو تصرخ في كل الزوايا الحافلة بالنمل...
فكر: من أنت؟!

كتاب يتمرغ بالوحل؟! قصيدة تُعدم في الظهيرة؟! أقصوصة تتعرى من الحكاية؟! جسد لم يعد يفكر؟! أحزمة تباع على الأرصفة الغريبة... جثث هذه السطور الموجعة... صراعات في تنامي التناقضات... أبخرة المعاني... روح أسطورية... الغياب والطلل... كيف لم تعد تعرف أنك المتناهي في الصغر وتعاويذ الفقراء والعابرين من غير متاع؟!

لا تكن غبياً... هات ما تصرخ به من غير صراخ. كن سيداً للغة... انحرها... بعها في سوق النخاسة... عد إلى كتابك المهزوم...

أيها المتصاغر في التلاشي... يا سيد اللغة المترنحة من أخبرك بكارثة نهايتك؟! هل كنت تحلم ؟!

قم الآن، واقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين... علك تصبح خارج دائرة التلاشي.

١٢ كتابة المستقبل..

الخوف الأبيض ينسج أعصاب الآنين على أمن شرايين أطفالهم الصغار...

الخوف الأصفر غول شرس يسكن القلوب الآيلة إلى الانهيار...

الخوف الدموي ورقة سوداء نكتب عليها، بالحبر الأسود، كلمات سوداء؛ نلعن فيها، في الليل الأسود، كل الذين جعلوا عيشتنا سوداء...

عندما يقبضون علينا متلبسين بالكتابة، يضحك الغول الشرس المنشغل بتناول المهدئات الخطرة، فنلعق أحزاننا ساخرين جادين...

- ألا ترون هذه الورقة السوداء، والقلم الأسود، والحروف السوداء، والفكرة السوداء... لا دليل يدين هذا «النحن» العبد المستكين الواقف أمامكم...

قالوا: لا فرق بين الورقة السوداء، والأخرى البيضاء... المهم أنكم متلبسون بالكتابة التي حرّمت عليكم منذ أن قررنا أنها تضر بصحتكم المرهفة...

نشر حروفه الأولى... صادروها... وزّع أوراقه البيضاء بعنوان: «ما أريد قوله تعرفونه»... صادروها... قرر أن ينشر كتابه الأسود بعنوان «أيام سودة»... صادروه!! وأخيراً حكموا عليه بالجنون الذي علاجه أن ينسخ دساتيرهم مئات المرات!!

١٣ الــروح

تشرق الروح من غربتي الباردة
تترعرع في أحشاء أفكاري
تعزف أغنية الصمت الرهيب
ترقص لحظة بكائي الصامت
تقف هناك... تسخر مني... تلعب بأذيال الحزن...
من أنت ؟! تصرخ بي!!
آه من سخريتها... صرخاتها: من أنت؟! أنت؟! أنت من تكون ؟!

هناك تقف!! وهنا أنزوي كئيباً!! من أنت؟!

أنا جسد مرهق... ما زلت نزقة... أتلاشى... من أنا؟! هل أعرف حزني؟! فرحي؟! لغتي؟! أشيائي البالية؟! يا أيتها الصاخبة، المتمردة على خوفي... هل تعرفين من أنا؟! أنا لا شيء بدونك!! لا شيء بلا أفكارك!! حلمك!!

تشرق الروح من غربتي الباردة... تسخر مني... تهتف: قم الآن... ارقص للوداع... اكتب مرثية الولادة...

الروح تلد من جسدك المتهالك... عنقاء جديدة... لن تموت... فالروح لغتك الجديدة!!

١٤ التجـــاوز

قهقه الصباح بكلماته الواعظة: «عليك أن تتجاوز الصغائر»!!

أكمل بقايا القهوة الباردة، دعك عقب السيجارة على الأرض بحذائه المتسخ... توجه إلى عمله.

همهم: «عليّ أن أتجاوز الصغائر... أنا لا دخل لي بما يحدث، المدير قال: وقّع. وقّعت. صحيح أنه سيصرف لي مكافأة ضئيلة، لكن هذا لا يهم، فأنا مجرد موظف صغير يوقع على تجاوزات المدير الكثيرة...

المسمار حسبه بعشرين دولاراً، ما عليّ إن كان ثمنه دولاراً واحداً، لكن اللعين حسبه بعشرين،المؤسسة تحتاج

مئة مسمار فقط، الملعون أضاف صفراً على الورق، يعني أن الصفقة ستكون ألف مسمار، ولا نشتري إلا مئة...

ألف مسمار بعشرين؛ يعني عشرين ألف دولار، تدفع المؤسسة الحكومية عشرين ألف دولار ثمن مئة مسمار بمئة دولار... اللعين يعرف كيف يصب أموال المؤسسة في حجره... مؤسسة الطيران المدني العامة بطولها وعرضها تصب في حجره... ألم ينتفخ؟!

مع كل صفقة مكافأة لي مئة دولار... ألف دولار في الشهر مكافأة... ألف دولار مقابل عشر صفقات بآلاف الدولارات أمررها له... اللعنة... ما عليّ... عليّ أن أتجاوز... أن أوقّع... توقيع المدير هو الأهم... أنا يا عمي عبد مأمور...

هل أستطيع الوقوف في وجه المدير؟! هذا مدير... بإمكانه أن يستغني عني كما استغنى عن كثيرين... سأتجاوز... سأتجاوز!!

إذا كان غريمك القاضي... فلمن ستشتكي يا مسكين؟!

١٥ التنفس حلما...

عليّ أن أتنفس!! هكذا قلت لنفسي...

ولكن، كيف أتنفس؟!

سؤال أرقني حتى الضياع!!

أريد فقط أن أتنفس... لا شهيق، ولا زفير!!

وأخيراً، وجدتها فكرة مستساغة: أن أتنفس حلماً، تخيلاً، فكرة متداعية!!

أي حلم أريد؟

حلم الأمل!! حلم الوسادة الخالية! حلم اليقظة!! حلم اللاشعور!! حلم كابوس بطن منتفخ؟!

جلجامش والإسكندر حلما بالخلود!! وأنا أحلم أن أتنفس بارتياح ما قُدِّر لي أن أعيش...

وعليّ أيضاً أن أحلم بلحظة قصيرة خالية من أية شائبة في وجه هذا الوطن الكهنوتي من بره والعاهر من جوه... وفي لحظة ما كدت أن أغوط في وسط الشارع بين الناس على طريقة «بلاد لا تعرف الناس فيها... كلْ، وغوطْ فيها» ... رؤوس حشرية تأكل أجسادنا من أخمصنا... إلى غرتنا...

قيود هنا... وقيود هناك...

نفخ بأبواق الوطنية والنصر والزهد والفضيلة والحرية والقومية والوحدة!!

الوحدة!! هذه اللعينة التي تجعلني أشم بحذائي أنفاسهم الآسنة بالخمر وأجساد الغواني، تلغلغ بلغة البصاق في وجوهنا صباح مساء...

لا شيء غير الرياء... والمزيد من القيود، وامتلاء الواجهات

بصور جديدة في أعيادهم الكذوبة من أجل الوحدة...

لكنني أحلم: لبست حذائي!! وبدلة العرس القديمة!! ركبت شاحنة فارغة ضخمة. سرت بها بين مدينة وأخرى... أحمل فرداً واحداً من هنا... ومن هناك... نتجمع مئة... ألفاً... مليوناً... مئة مليون...

نـــــغني:

بلاد العرب وطننا... بلاد العرب وطننا!!

نتجمع في ساحة مدينة ما... عمان مثلاً أو القاهرة أو الرباط أو دمشق... نغني: من الشام لبغدان.. ومن عدن لتطوان.. بلاد العرب وطننا.. لا أوطاني..

هكذا حلمت..وقبل أن أصحو، جمعنا كلنا وثائقنا الآسنة في مستنقع الإقليمية البغيض... حرقناها... شربنا بخارها... سطّلنا... نمنا... فصحونا... سرنا في الشوارع نحرق وثائق الببغاوات اللعينة... نردد وثيقة واحدة... بلاد العرب... وطننا ... من الشام لبغدان... ومن عدن لتطوان...

وما أن صحوت من حلمي حتى وجدتني قد عزمت على أن أتغوط في كل الشوارع الراكدة تحت صورهم المنتهكة هناك... والمؤلهة هنا...

١٦ أغنية الرحيل

ثمة أشياء تقذف بك إلى المستحيل، هنالك تبحث عن ذاتك، فتجد بقايا مشوهة...

أنت إذن راحل إلى الغروب، تبحث عن أشيائك الحميمة، لا تجد منها ورقة واحدة...

خذ نفساً عميقاً كي تحس بأنك حي... حتى هذا النفس لا يشعرك بالحنان تجاه ذاتك...

العالم من حولك يدور في دوامة مفرغة... أنت وحدك الخائف من تلاشي أنفاسك ...

المورفين الطبي لم يعد قادراً على أن ينقذك من صخبك كما يقول الطبيب لذويك المنتظرين لحظة موتك... الآلام تتصاعد نحو الدماغ... الصداع العظيم...

لم يبق إلا أن تصحو من نومك... ترى السيدة بجانبك مستغرقة في نوم عميق مع شيء من الشخير الطافح الغاطس في لحظات متناقضة... أين أنت من هذا الهدوء المقيت؟!

ثمة أشياء تقذف بك إلى المستحيل... إلى بقايا الأشياء الصامتة الصاخبة أحياناً... الغرفة الضيقة تتسع حتى تغدو هاوية تفضي بك إلى بحر من الرمال الهائجة... فجأة تضيق إلى أن تصير عنق زجاجة صغيرة الحجم...

تجد نفسك بين المد والجزر صارخاً في بقايا التلاشي... متمسكاً بآخر شعيرات الوعي... ينقذنّك هذا الوعي من مغبة الضياع الأخير... التفكير في لحظة الرحيل... أنت هنا لأنك المستحيل... البكاء لحظة سخيفة... مشاكسة العالم لحظة أسخف...

إذن عليك أن تنقذ روحك من الانقذاف إلى دوامات الموت... تقف... تصحو من نومك... من كابوس الموت!!

ثمة أشياء تقذف بك إلى المستحيل...

احمل حقائبك... بقايا أشيائك... اخرج من هنا... عانق الرحيل الذي يوصلك إلى ذاتك... عانق أشياءك القديمة... ذاكرة الطفولة... صرخات الفرح الأولى... الأشياء تعود جميلة كما كانت... بحثت عن ذاتك فوجدتها أخيراً في بساتين الطفولة... فامتطيت أمواج الرحيل إلى أعماق تفاصيلها الكثيرة؛ فكان الرحيل أغنية جميلة!!

١٧ سري للغاية؟!!

تساءلت في سري: ما الغاية التي تجعل هذا الملياردير يتسلم رئاسة السلطة في بلاد واق الواق؟!

يحمل درجة الدكتوراه التي لا يفقه منها شيئاً... أمواله (إن كانت أمواله) كثيرة ولا يعرف عنها شيئاً؟!

ابنه المليونير الصغير فجأة... صارت الصحف العربية تكتب عن نجاح عملية زرع طواحينه التي أكلها سوس السيجار الكوبي ؟!

ما الذي جعل ذلك العجوز يؤمن بالقضية، وهو منها عارٍ!!

صوت بعيد يهمس في أذني: «مجبور يا سيدي ... مجبور!!».

هذه هي الحكاية إذن!! مجبر ... مجبر رئيسك لا بطل!!

في زمنه الأرعن... توقفت عجوز طيبة في متجر السمك... تتحسس ذنب سمكة هامور كبيرة... تشمها... تضغطها... تنظر إليها بعمق...

غضب السمّاك... مدّ يده بعصبية واضحة... وسحب السمكة:

يا سيدتي، أتخترعين طريقة جديدة لتفحص السمك؟! السمك لا يفحص من ذنبه يا عالم يا غجر!! السمك يفحص من صدره يا ناس... يا هو!!

ردت ضاحكة... كانت عيونها تشع فرحاً... فشرّ البلية ما يضحك!!

أعرف... أعرف يا سيدي... لأنني متأكدة من فساد الرأس... ثم الصدر!! أتفحص الذنب؛ لأتأكد من أن الفساد

لم يصل إليه ! !

كنت واقفاً أنصت إليها... تعجبت كثيراً... وقلت في سري: ما أعجب هذه الحكمة ! !

١٨ حكاية لم تعد تهمني

كنت ماشياً إلى البقالة...

خرج ضخم الجثة من البوابة الفارهة

صفعني

صوب المسدس إلى رأسي

حملوني إلى الشرطة .

التهمة :

- زقر الحجارة على البيوت الآمنة.
- انتهاك أعراض الآخرين.
- التعدّي على الجيرة ! !

العقاب:

السجن مدة شهر على ذمة التحقيق ! !

١٩ كنـــت

ماشياً... ممتلئاً بصخب ضياعي وحرقة أسئلتي... وفجأة بعد أن سرت مسافات طويلة في متاهات غربتي...

آلمتني قدماي... نظرت إليهما برعب فطري عاد إليّ من أيام طفولتي... كانت الدماء تنهمر... وكنت ماشياً وحدي... لكنني كنت حافياً هذه المرة!!

٢٠ قلبـــي

مؤلم هذا العشق، ينساح بين أضلعي، فأختبئ وراء الحــروف... ذكريات تمر من هنا... أسترق النظر إلى الشوارع... فأندحر إلى قلبي الموجوع بماضيه... كيف تعشق اللغة... وتموت في أحضانها... ولا تعرف كيف ترسل الكلمات إليها... فتهرب من وجهها إلى قلبك الهارب؛ فتتحسس شرايينه التاجية... وتحمد الله أنك ما زلت حياً!!

٢١ كآبتـــي

الأشياء كلها كآبات... وأنا سيدها!! هذه الصحراء تتمدد جافة لتصفعني بلقمة عيشي!! الصفعة باردة... وأنا أبرد منها... وصحرائي جافة بصهدها... تحسست وجهي... فحمدت الله أن وجهي ما زال بارداً!!

٢٢ تلفـــازي

حركته ليقترب مني... انزاح قليلاً... ترنح... فسقط مغشياً عليه... حاولت إنقاذه بكل ما تعلمته من إسعافات أولية...

لكنه لم ينبس ببنت شفة... شاشة معتمة... كيف سأتابع الحرب؟! لأول مرة في حياتي أشعر أنني بلا سلاح... لكنني اكتشفت فجأة أن الحياة بلا تلفاز... ربما تكون أجمل!!

٢٣ خـــوف

الراحلون من هنا يدخلون الفيافي اليابسة خائفين... وحوش غريبة بأشكال آدمية، تظهر للحظات كلمح البصر في شمس حارقة، تلتهم الأفواه الشرهة فقاعات زبد البحر...

الراحلون يغيبون فجأة... وبعد حين تظهر ملابسهم ممزقة مدعوكة بالدماء والوحل وبقايا الخوف... لكنهم ربما قاوموا بشراسة قبيل موتهم،إن ماتوا.

الخوف سهول خصبة بالأشواك في روع الباقين، ينتظرون الرحيل الغريب... كتل من البشر ينزاحون من هنا... ليغيبوا في جوف الخوف هناك!!

أحدهم فكر بخيمة النجاة... كانت الفكرة الجهنمية أن يحصدوا الخوف باللامبالاة؛ فهو الرائحة... تشتمها الوحوش الغائبة، الغريبة، تلتهمهم...

فهل تنجح هذه الرؤية؟ ربما!!

٢٤ تعزيــــة

على حافة المقبرة القديمة المزدحمة بالأضداد وقف يتأمل الخلاء!!

قبيل لحظات غادر المشيعون بملابسهم المغبرة بعد أن دفنوا الرجل الذي مات غريباً منذ أربعة شهور... مدحوراً في ثلاجة المشفى، وحيداً، بارداً...

كيف يواجه مصيره الآن؟!

قال بصوت مرتفع: اللهم ثبت قلبه!! لوى عنقه إلى جهة منزوية حفرت بعض قبورها!! تعوّد الحفارون أن يحفروها للطوارئ، هناك ستدفن جثث الغد... وربما جثث الليلة!! تخيل نفسه جثة محمولة على الأكتاف لتوضع في القبر الثالث بسبب حجز القبرين الأول والثاني لآخرين...

انتفض...

عزّى نفسه بأن الأموات الطيبين قد يتواصلون فيما بينهم، فلمَ الخوف؟!

٢٥ هــــروب

أمام البناية الشاهقة في المدينة الجديدة وقفت العجوز تنظر إلى الأعلى...

لم يصل نظرها المتهالك إلى نهاية مريحة... كان ابنها يقطن في الدور السابع عشر .

شعرت بالخوف من إمكانية انهيار البناية الشاهقة في لحظة دخولها المدخل العام.قررت في اللحظة نفسها أن تركب سيارة الأجرة المحاذية... عادت إلى غرفة الطين في الحارة القديمة... تنفست الصعداء!!

سخرت من تحذيرات ابنها التي حاولت دفعها إلى السكن في إحدى غرف شقته، خوفاً عليها من انهيار الطين فوق رأسها شتاء... فرحت كثيراً وهي ترى الموت تحت التراب والقش أرحم بكثير من الموت تحت أنقاض عمارة إسمنتية معجونة بالحديد والكهرباء.

٢٦ جريمـــــة

ذلك الأبله الغريب اللعين كيف عرف أن جثة الميت الذي دفن عصرية هذا اليوم فتاة جميلة لم تتجاوز العشرين من عمرها ؟!

في الليل أخرجها... عاث بجسدها فساداً... جنوناً!! اللعنة، كيف انتهك عرضها وهي ميتة؟!

نبّهت روحها أباها، أخبرته... أنها عارية... مخطوفة... باردة... يغتصبها شيطان!!

ألا يتوجب عليهم بعد أن أمسكوه أن يشنقوه في الساحة العامة عارياً، ويعلقوه في الصقيع مصلوباً لعشرة أيام كاملة على الأقل!!

٢٧ خريـــف

بكت العجوز كثيراً في سماعة الهاتف، طالبته أن يحضر إليها لتراه قبل أن تموت!!

كيف يذهب والمسافات تمتد كجسد المحيط اللعين بين بلدتين متجاورتين... والهموم الكثيرة تحاصره!!

بكى لأجلها، شد من عزيمتها... دعا لها بطول العمر... قال: لن تموتي قبل أن نلتقي!!

لماذا هو متيقن؟!

الحياة لا تغدو أحياناً أكثر من هاجس روحي يشعر به الابن تجاه والديه... لعل الخير الذي يرحم به الله عباده أكبر مما يتصور!!

ما زالت قصة ذلك الصالح تخيم في ذاكرته... حفروا له عدة قبور وفيها كلّها وجدوا الثعبان الأسود... أخيراً عطس الميت الصالح، وقام ليعيش خريف عمره!!

٢٨ بكـــاء

البكاء نهران موسميان من الدموع يتدفقان!!

كيف بإمكان هاتين العينين في وجه طفولي أن تنتجا كل هذا الماء المالح؟!

طفلة صغيرة ضاعت من يد أمها المشغولة قرب مقبرة ما... ارتعبت!! وقفت على باب السوق تبكي... اغترقت بالدموع!! الله، الله، ما أروع حزن الأطفال وخوفهم من الاغتراب!!

هدأت من روعها امرأة تسير في الشارع، تحمل سلة خضار!! نظرت الطفلة في الوجوه المستفسرة حولها كأرنب بري، لا حول له ولا قوة بعد أن وقع في فخ الصباح الظالم!!

فجأة لما رأت أمها، الباحثة عنها كبقرة وحشية، امتقع وجهها بالفرح الممزوج بملوحة الماء!! ولدت دموع الفرح من البكاء الحزين...

حينها غابت المقبرة في البعيد!!

٢٩ قلب

القلب الحزين المشرد القابع قرب المقبرة يفرح بلقمة الخبز اليابسة!!

قبل يومين كان الناس يعيشون بأمن وسلام وحب... الآن ليس لهم إلا الخيام... الصدقات البائسة... المقبرة الجديدة التي أنشئت لأمواتهم...

انفطر قلب الرجل الجالس يشاهد أخبار اللاجئين هنا، أو هناك!! تذكر عندما كان طفلاً كيف اغتصبوا أرضه... ورموه في العراء مع أمه التي حفر القبر الأول لأجلها في المقبرة المجاورة... لا فرق بين اللاجئين أينما كانوا!!

فكر بأن الصهاينة وحدهم وراء كل المآسي التي تغرق اللاجئين في الغربة... لكنهم هنا يقومون بدور الصهاينة... بل ربما من أجل هذا قرروا هنا أن يبعدوا الأنظار عن قضيته واغترابه... بل عن أعدائه الصهاينة!!

٣٠ مؤامـــرة

أنت تذهب إلى الشارع العام متستراً بنظّارة سوداء وجريدة... ترقب من فوق الأسطح، تنصب حبل الغسيل... تحمل البندقية بلباس عسكري مزور... تجلس في السيارة التي ستسوقها أنت... بعد أن يخرج من بيته اقتلاه...

أنا سأنتظر في المكتب...

بعد ثلاث ساعات كان يتصل بجهة سرية، يخبرها أنّ الطبخة استوت!! كلمة سرية تعني أنهم قتلوه؛ لأنه ادّعى يوماً ما أن المقبرة هي المدينة كلّها!!

٣١ توصيـــة

هذا الرجل يحمل توصية مهمة: يعبث، يفتري، يتلاعب...!!
خمس سنوات يمارس امتداد المقبرة في الوجوه... ضياع للضمير!!

تمحك به أحدهم، حاول أن يعاتبه، طالب بإحالة أوراقه إلى المفتي!!

الأخـذ والـرد لسنتين... ولـد الخـوف... غدا صاحب التوصية سيداً... والمتمحك يقبع في السجن بتهمة انتهاك شرفية الآخرين، والتعدي على حقوقهم...

عجيبة تلك التوصية المهمة... لقد أودت بحياة المتمحك مؤخراً إلى المقبرة قهراً!!

٣٢ غريـــب

أنت غريب الأطوار!! كيف تقبل ألا تدافع عن حقوقك؟! ألست من لحم ودم؟! ألم تكن لديك غيرة على مصالحك؟! الحلم في هذا المستوى جبن، خوف، ارتكاسة مقبرة!!

هيا قم الآن، اذهب إليهم... اطلب منهم حقك!!

اندفعَ ليواجههم... وضع يده على جرس الباب... توقف في اللحظة الأخيرة... قفل راجعاً!!

أدرك أنهم سيقولون له: أنت غريب... اذهب وعش هناك في المقبرة حتى تموت!!

٣٣ انتحــــار

لم تعد بحاجة إلى الحبل، أو الأدوية، أو بعض السموم، أو الارتماء أمام سيارة مسرعة، أو القفز من فوق بناية شاهقة، أو الغرق في نهر جارٍ لمن لا يعرف السباحة أو الاحتراق بالنفط وعود الثقاب، أو القتل المتعمد لشخص تكرهه، أو... أو... أو... أو...

فقط عليك أن تذهب إلى متجر الهوائيات، تشتري «الدش» الفضائي، تجلس أوقات فراغك أمام التلفاز، تتقلب بين محطة وأخرى...

فأنت هنا- بكل تأكيد- قد مارست الانتحار بطريقة سهلة ومريحة وأيضاً ماتعة!! وإن قررت أن تتابع موجز أخبار «الجزيرة»، فأنت حي بكل تأكيد!!

٣٤ أحجيــــة

من هو الشخص الذي إذا حضر الاجتماع العام سخروا منه، وإذا تكلم شتموه، وإذا راقبوا لغته خنقوه، وإذا وقف في الشارع أو مشى شكّوا بوقفته أو مشيته، وإذا كتب أو

لوّن يأسُوه، وإذا أنفقوا المال استثنوه، وإذا وصفوا شخصاً بالجنون وصفوه، وإذا رغبوا أن يدفنوا أحداً دفنوه، وإذا بحثوا عن شخص يمجدهم أرغموه ؟

وحتى نقرّب الإجابة هو ليس شاعراً، ولا قاصاً، ولا تشكيلياً، ولا ممثلاً جاداً... وربما كلهم معاً ! !

وللتقريب أكثر : غالباً ما يحتفى به بعد موته ! !

٣٥ نكتة سخيفة

قبل أن يخرج من باب العمارة هتف به هاتف: لا تخرج الآن ! ! فنجا من موت محتم تحت عجلات شاحنة مسرعة...

مرة أخرى هتف به هاتف: قم اخرج الآن، فنجا من الموت تحت أنقاض العمارة المنهارة.

قال متعجباً: من أنت؟ !

قال: أنا قرينك الصالح !

قال: وأين كنت عندما تزوجت؟ !

٣٦ لوحـــة

الشـارع مسكون بالضياع والمـوت... المـارة يمرون فرادى... الأخيلة تهيم في الهواء الجامد... عوادم السيارات تخنق ذوي الأنوف الحساسة ! !

بسطاء، خراف، أحذية، أوانٍ قديمة، ملابس داكنة، بقايا مياه نتنة...

كيف تمتزج هذه الأشياء كلها، فتشكل لوحة لعالم يذوب قرب المقبرة الكبيرة في المدينة التي تترصع بالفناء؟!

٣٧ عبقريــــة

اخرج من هنا... لا تخرج من هنا... كن مؤدباً عندما تخاطب الأكبر منك سناً... ذاكر دروسك جيداً... كن ولداً مهذباً... إياك واللعب أكثر من ساعة يومياً... أنت ولد عاق... إنك غير جاد... أنت غبي... هل تريد أن تقتلني بنوبة قلبية؟! لماذا تحب السخافات؟ لا تكثر من أكل الحلوى... اشرب الحليب... كن ودوداً مع الآخرين... نظّف أسنانك جيداً... ماذا فعلت اليوم؟!

أوامر... أوامر...

وفي لحظة مسروقة: جاءه الصغير بهدوء، وقال له بنشوة النصر: ألم تلحظ شواربي؟!

فكر الأب جيداً، ثم قال: حتى لو أصبح عندك زوجة و«عرة» أولاد، فسوف تبقى بالنسبة إليّ طفلاً، تحتاج إلى توجيه!! وإن متُّ قبلك، فحينئذ بإمكانك أن تتحرر، لتغدو سخيفاً!!

٣٨ تهذيـــب

يجاملون بعضهم بعضاً... ينافقون... ويدّعون أن هذا هو التهذيب!!

ينمّون، ويقولون: مجاملة...

يغتابون، ويقولون: «فشة خلق»...

يتزاورون، ويقولون: رفع عتب...

يتهاتفون، ويقولون: ولا العدم...

يتهادون، ويقولون: سداد ودين...

يتعازمون، ويقولون: فراش وغطاء...

يتباكون في مآتم أمواتهم، ويقولون: كل يبكي على ليلاه... وفي مناماتهم تأتيهم أرواح الموتى تعتب عليهم...

إن التهذيب غلاف لعلاقاتهم... وما أن ينفجروا حتى يغدو هذا التهذيب كله قلة أدب!!

٣٩ نهقة حمـــار

حرارته ترتفع تدريجياً... الطبيب الماهر يعجز عن تخفيضها إلى حد الأمان... سيموت إن لم تحدث معجزة إلهية...

ما الذي يحدث له؟! الخافضات كلها لم تعد نافعة!! بل ربما تسهم في رفع درجة الحرارة... اثنان وأربعون وثلاثة

أعشار هي الآن... قد ينفجر بعد لحيظات... الأمر في غاية التعقيد!!

الأمر كله بيد الله... الانخفاض معجزة!!

فجأة نهق حمار يمرّ بجوار البناية، تركب عليه بدوية عجوز... ارتجف الجسد... وبدأت حرارته تنخفض تدريجياً!!

٤٠ عـــذاب

الموت مع الجماعة رحمة!! الموت مع الجماعة رحمة!!

حكمة طالما رددها آلاف المرات... وفي أية مناسبة تقريباً!!

شاهد الناس يتزاحمون على مدخل بناية حكومية... قال في نفسه: الموت مع الجماعة رحمة!!

زاحم بينهم وهو يردد الموت مع الجماعة رحمة... رحمة... رحمة!!

وقعت بطاقته من جيبه... انثنى يبحث عنها... كاد أن يقول بصوت مرتفع: الموت بين الجماعة عذاب!! كانت الأقدام تتجاوزه وتدعكه في الأرضية...

ربما ردد قبيل موته الحكمة المناقضة... الموت تحت أرجل الجماعة جريمة لا تغتفر!!

٤١ رؤى

الكوخ الأصم يمتد في شرايين الرمال الذهبية الداكنة تحت البنايات المتجاورة!!

قبل سنوات طويلة عجفاء كانت الجذور صلبة يانعة... الآن تآكلت حتى غدت يابسة بلا ماء...

سرمدية الأشياء تحيل المكان إلى خرافة... الناس يخافون الكوخ... يهربون من الاقتراب منه ليلاً...

حكايات ورؤى عن الأشباح، الجن، الشياطين، الوحوش، المجانين... تنتشر في عقول الكبار والصغار... وأخيراً جرفوا المكان..

لمّوا بقايا عظام الأجداد التي ما زالت متماسكة، ليدفنوها في المقبرة البعيدة... قرروا أن يبنوا عمارة متطاولة مكان الكوخ!!

كأنها مؤامرة!!

٤٢ جـــوع

الأحشاء تتصارخ كأنها أبواق مدينة محاصرة... يبحث عن لقمة يسدّ بها جوعه، فلا يجد غير الماء... شرب كثيراً منه حتى انتفخت مثانته... لم يعد بإمكانه أن يصبر بعد ثلاثة أيام من الجوع المتواصل.

من هناك حملوه... وهنا رموه، لا إنس ولا جان... رمال مترامية الأطراف... وضعوا عنده عشرات البراميل من المياه العذبة... يراقبونه الآن بطريقة ما... إنه معارِض ومحكوم عليه بالإعدام... والقرار أن يموت جوعاً... لا عطشاً!!

طريقة جهنمية جديدة لتنفيذ أحكام الإعدام المعاصرة في «جواتيمالا»..

ومنعاً للقال والقيل قرروا إذا نجا من الموت بعد شهر دون أن يأكل شيئاً أن يعفوا عنه؛ إذ يغدو رجلاً مدجناً .. وحينها قد لا يعفون عنه لسبب ما!!

هل فكر كثيراً قبل موته بعد عشرين يوماً من الصمود؟! دفنته الرمال الحميمة، باكية عليه بلا قطرة ماء!!

٤٣ داية

هكذا تخيط الشوارع، فتولّد هذه وتلك!! قابلة القرية كلها!! ولّدت البنين والبنات... لا تأخذ غير قطعة صابون مجاملة... تفرح إلى حد الإشراق بولاداتهم الطبيعية!!

تتعاطف مع أحزان الأمهات عندما يولد المواليد غير أسوياء!! الحياة كلها من وجهة نظرها عذابات امرأة تلد ليلاً... أو امرأة بور تستميت لتنجب بلا جدوى!!

ماتت أخيراً في أوج قوتها!! كلهم حزنوا عليها كأنها أمهم!!

٤٤ معركــــة

أعجب بها...

فهي جميلة، وهو ابن شيخ القبيلة المجاورة المعادية... هربت معه... تزوجها... قامت القيامة... مئة وأربعون قتيلاً على الأقل بسبب الحرب التي قامت بين القبيلتين!!

حرب طاحنة!! قصص مرعبة تروى طوال عشرين عاماً!

كانت رحمها الله جميلة حقاً.. أنجبت ولداً وبنتاً.. الولد مات غرقاً بعد أن غدا شاباً، والبنت ماتت بعد عامين من زواجها...

حزنت الأم كثيراً، أدركت قبل موتها أنها امرأة لم تثمر عقاباً على هروبها معه!!

٤٥ التآكـــــل

أنا هنا لأنني مجبر على الضياع... عليكم أن تفهموا تآكلي من غير سبب!!

هل تريدون أن أضيع بين الحصى حتى تصدقوا... أن تدوسني الأرجل حتى تؤمنوا... أن تأكلني الحشرات حتى تتيقنوا... أن أموت قهراً حتى تحزنوا... ماذا تريدون مني أن أفعل لأجلكم حتى تحلّوا عن ظهري؟!

صدقوني سأعترف أنني كنت غبياً عندما قررت الخروج على أعراف شيخ القبيلة!! هيا اقتلوني؛ لأرتاح من شروركم!!

إنني أتآكل يومياً خوفاً من أعقاب أحذيتكم اللعينة!!

على الرغم من ذلك سأفكر بطريقة تجعلني أتلاشى مثل فقاعة صابون عندما تغضبون مني!! ألم تقتنعوا بعد بأنني لم أعد فارس القبيلة؟! إن لم تصدقوا فأنتم بلا شك مرتعبون!!متآكلون!! وأنا أتحول إلى شجرة سرو متعالية تثمر حنطة على غير عادتها!!

٤٦ حنونــــة

أشواك كثيرة تنمو في الساحة العامة المقابلة للمجلس البلدي... وردة حمراء صغيرة متسامقة تدافعت من بين الأشواك... أعضاء المجلس البلدي تعجبوا من مغامرة هذه الوردة التي غدت حكاية... لم يجرؤ أحد منهم على أن يقطفها خوفاً على نفسه من الأشواك... هم زرعوا الأشواك... ليدفعوا البسطاء إليها انتقاماً...

قال الناس: الوردة الحمراء نبتت في المكان الذي وقعت فيه المرأة الحامل... المرأة التي ماتت تبحث عن زوجها بين الأشواك... مات جنينها... ولدت الوردة الحمراء... تفاءل الناس، وارتعب أعضاء المجلس البلدي!!

٤٧ الحــوت

الحوت ينتحر!! الحوت يرفض أن يعود إلى الماء؛ ليمارس حياته الطبيعية!! الحوت قصة تملأ الصحف والمحطات الفضائية!! الحوت مهدد بالانقراض!!

العالم يمارس تعاطفه مع الحوت رأساً على عقب... العالم لم يحرك ساكناً عندما أبادت صواريخ بلد الحوت المسكين شعباً كاملاً في دولة آسيوية نامية!!

أليس في ذلك حكاية غريبة؟!

٤٨ مشاهداتـــي

كيف لا أعجب؟! صدور نافرة... ومؤخرات مبروزة... ووجوه ملطخة بالألوان... والملابس شفافة... والأجساد متمايلة... والحق يقال: قد يلبسن حجاباً شرعياً يخفي معظم الشعر!!

٤٩ الـــورم

سنوات طويلة عجفاء دامية مرت كسحابة صيف في ريح ساخنة!! في هذا اليوم يتوقف ليتذكر ماضيه كله... كأنه دخل من هناك ليخرج من هنا... الغربة السوداء... الأقارب العقارب... هذا المبلغ الذي جمعه له أولاده بعد أن أجبروه على التقاعد كأنه الغصة في حلقه... تبعثرت خمسون سنة من الشقاء والعذاب والكد... ربّى... علّم... زوّج... عارك... ساعد... ثم إلى رحمة الله!!

تجمع الذكور السبعة؛ ليتقاسموا مبلغ «ربع دونم الأرض» الذي تركه وراءه... البناء دائماً إلى إشعار آخر... والسكن بالأجرة هو الحل!!

كان أمله في الحياة قشة واهية!!

الـــورم... الـغـيـبـوبـة... التمسك بـالـحـيـاة... الذاكرة المشتعلة... السن الـذي تجـاوز الخامسة والستين غدا لحظات... الله يرحمه!!

في مساء تلك الليلة غاب غيبته الأخـيرة... وفي صباحـها طارت الروح إلى بارئها... وبعد صلاة العصر حملوا الجسد إلى المثوى الأخير...

ندفت السماء... بكت الأزقـة... الأشياء تذوب... الورم أيضاً يذوب... لكن الموت وحده يبقى امتداداً لأحزان ذاكرة الحياة!!

٥٠ الورقــة الخضراء

أشياء تطير... أشياء أخرى تسقط لتدوسـها الأقدام... الورقة الخضراء تتراقص مع الريح كأنـها أغنية على شفاه صبية نضجت لتوها... الورقة الخضراء تصفرّ تدريجياً... يكتمل الاصفرار مع لهيب الشمس... ومع هزة ريح تسقط لتتفتت تحت الأقدام المارّة من هنا وهناك...

كانت أمي ورقة خضراء عندما توفي أبي... أربعون سنة مرت على وفـاتـه... أربعون سنة جعلت الورقة الخضراء تصفرّ... ميراثها الملايـين... لكنها ورقـة صفراء... ماذا بإمكانـها أن تفعل بميراثـها!! الملايين لا تعيد الخضرة إليـها

ليوم واحد... فاستولى على كلّ شيء أخوها بحكم العرف والعادة!!

الورقة الصفراء تنتظر هزة ريح... هزة خفيفة فتصير روحاً تطير إلى السماء... من يملك حريته تجاه النهاية؟! الأوراق تتساقط... بما فيها الخضراء!! الموت يحصد الأخضر واليابس... سيان!!

لكن الورقة الصفراء ستبقى الورقة الخضراء في قلوبنا!! لأنها الأم التي تحيا مدى الحياة كورقة خضراء تجري في دمائنا!!

٥١ أمـــي

يحزنني وجهها المأكول... فأبكي منزوياً عنها... كيف كانت أمـي؟! وكيف صارت؟! تلك المرأة الحديدية التي لم تغيّب والدي على الرغم من موته منذ ولادتي... غدت جرحاً في حنجرتي... تتناثر حولها أدوية بلا جدوى... تشعل «غليونها» بالتبغ البلدي... فينير وجهها... وحينها فقط تبتسم... ولا تنظر في المرآة... فأنزوي لأبكي!!

٥٢ عبد أوســـلو

ما أن يظهر «عبد أوسلو» حتى تنتابني مشاعر القرف السياسي، والنرفزة الأسرية، والحكة الشديدة بيدي

اليسرى بين أصابع رجلي اليسرى!! حينئذ أبدأ في محاورة نفسي ويدي اليمنى تحك شعر رأسي، ولساني يقرأ على كلّ شيء نظيف آية: «إنا لله، وإنا إليه راجعون»... وأطلب من الله العوض، وأردد كما كانت تردد جدتي رحمها الله، وقد ورثت ذلك عنها أمي أطال الله في عمرها، وعلمته أمي لي، وهذا ما يجعل زوجتي دوما تسميني: «حماتي»!! يعني أن كل ما في أمي من الخير والإقدام والتمسك بإيمان العجائز قد انسكب فيّ ليغدو رحمة... فأمي كانت أيضاً أبي الذي انتقل إلى رحمة ربه وعمري سبع سنين عجاف!! أقول دوماً: «عليه العوض ومنه العوض»... فعبد أوسلو الذي تراكض كالمهووس ليوقع وثيقة التنازل عن حق الفلسطينيين اللاجئين بالعودة إلى وطنهم، لم تعد عورته مغطاة بأي شيء ولا حتى بورقة التين ... صحيح أن بعض الأشياء تحتاج منا أن نُلبس شعبنا أحذية قذرة حتى يتخطى المرحلة المأزومة التي يمر بها... لكن هذا العبد الذي نحرص على ألا نقرن اسمه بخالق الكون، وألا نحمّل جدّه أي ذنب لمّا حمّله اسمه... لم يكن ذلك الجد المسكين يعرف ما وراء الأكمة... لذلك صار اسم حفيده الحقيقي عبد أوسلو... وصار هذا العبد كتلة انتهازية متسلقة عجيبة غريبة... حتى أنه لم يترك مكاناً للوساخة إلا و«دحش» أنفه فيه... بل رمى نفسه كلها فيه، وغدا يعمل من النذالة وربما

العمالة وجهة نظر يحترمها هو وحدة والصهيوني «بلين»، وينظّر لها بكلام سفسطائي فارغ يتحمس له وحده كثيراً!! أيعقل أن يصير عبد أوسلو نائباً لرئيس الوزراء القادم في الحكومة المنتظرة؟! قلت في نفسي: ربما... توقف حاسوبي فجأة ... ظهرت لافتة سوداء مخيفة، كتب عليها: «الرجاء الانتظار بينما يقوم ويندوز بتحضير الكمبيوتر للوضع الاحتياطي»... وما زلت أنتظر... ربما تعطل حاسوبي نهائياً!!

٥٣ نبيل ونبيل ونبيل!!!

نكتة!! هذه مجرد نكتة لا أكثر ولا أقل!! قالوا «للختيار»: لمَ ميزانيتكم دائماً فاضية»؟! رد عليهم جاداً: لأن «نبيل ونبيل ونبيل ما بشبعوووش»!! كما قلت لكم كانت هذه مجرد نكتة بايخة يا نبيل ونبيل ونبيل!!

قال الضاحكون على الرغم من بياخة النكتة: نبيل عمه وعرفناه... ونبيل ششه وعرفناه... مين نبيل الثالث!! رد المنكِّت الذي حفظ كثيراً من نكت أوسلو: نبيل ررّه!! علق أحدهم :هذا مسكين أو يتمسكن!! قال آخر: الأول سألوه بعد عامين من عودته إلى فلسطين: أتيت ولا شيء في حسابك، فكيف عشش في حسابك الآن مليونان من الدولارات!! علق

أحدهم: إذا وقف الأمر عند المليونين، فالرجل فعلاً فقير!! أما نبيل ششه فقد احتكر تجارة الحواسيب!!! سبحان الله: الاسم يناقض من تسموا به!!

٥٤ الإســـمنت

لا حول ولا قوة إلا بالله!! ما أن أنظر إلى «صلعته الحمراء» (بل إلى رأسه كله الأحلس الأملس المشتعل بلغة التهريج)... حتى يتهيأ لي أنها (أو أنه) قطعة إسمنت من هذا الإسمنت الذي استورده ليسهم مع الصهاينة في بناء جدار العزل العنصري... هذا عيبي تحديداً، فقد تتلمذت على سخرية الجاحظ، وفلسفة أرسطو... فصاحب الوجه الإسمنتي ينتظر أن يشغل منصباً في حكومة الكفاءات... فهو كبير المفاوضين الآن... ينبغي أن يكون كذلك ما دامت لديه كفاءة تجارية عليا في بيع الإسمنت المهرب، وكفاءة سياسية أخرى عالية في التوقيعات الأوسلوية المدفوعة الثمن... وصلعة قرعاء، لن يثبت عليها شيء!!

٥٥ اعتــــراف

منذ أن قرأت أصغر قصة قصيرة جداً كتبت عربياً، وأنا أفكر بأن أكتب أصغر قصة قصيرة جداً فلسطينية... كانت القصة القصيرة جداً التي قرأتها:

عنوانها (مواطن) ومتنها (حاضر سيدي)!!
لأكتب قصتي الفلسطينية على النحو التالي :
العنوان : فلسطيني
المتن : الاعتراف بالصهيونية خيانة عظمى!!
بل لتكن هكذا:
العنوان: فلسطين
المتن: كلها وطني!!
أعتقد أن الأفضل هو :
العنوان: فلسطين
المتن: لنا!!!
فلسطين
أنا!!
(ملحوظة: هذه هي الحقيقة الوحيدة ... ولا فانتازيا فيها أبداً!!)

٥٦ شـــوارعنا

شوارع مدينتي أو حبيبتي الحزينة بُعيد منتصف ليلة الفوضى والفلتان خاوية :

أكوام نفايات ورماد حرائق... تحركات قطط أو جرذان؛ لم تجد ما يشفي غليلها بعد الحصار والجوع... خربشات بألوان

متناقضة على الجدران الملطخة بالأوساخ... عتمة موغلة في خوفها السرمدي بعد تدمير محطة التيار الكهربائي!!

امرأة ضيعت الستين من عمرها... ضلّت طريقها، تلبس أسمال الجنون وحكمة الكون وفضيلة الأسماء... تسند ظهرها نائمة... وربما يقظة... أو شهيدة... إلى ساق شجرة بلوط هرمة... كأنها تتحسس يدها التي كلَت من طرق أبواب الجوع واستجداء كسرات الخبز وبقايا «الشاي» المحلى بمرارة الصبر والبرودة!!

فوضى الأشياء... حفر الشوارع... حجارة السجيل... بقايا الدماء الزكية... لعبة «عروس الخرق» لطفلة كانت مشلوعة اليد اليسرى تجرها أمها الحامل... ألقتها الطفلة من رعبها لتنقذ نفسها، هاربة قبل مغيب الشمس من كثافات قصف غربان البغي وزواحف التدمير... كان القصف كعادته شيطاناً يبصق أحشاءه كيفما اتفق!!

هنا بيت مدمر... وربما بيتان... أو ثلاثة... أو عشرة... أو حيّ كامل... بوابات مخلّعة، وأشباه بساتين خاوية، ربما مرّ بجانبها العزير... وسيارات مهجورة أو مستعملة سيان... لأنها تشبه الغبار!!

أصوات إطلاق نار تقاوم؛ تسمع من بعيد أو قريب!!

سحنات وجوه المغتصبين المحتلين تشبه الظلام الموشّى

بالبوم والخنافس والخفافيش... يزحفون في كل الأماكن بعد حظر التجوال الأخير، يترصدون الليل النظيف ورصاصات الأطفال العاشقين لكراماتهم ورمالهم وبيارات أجدادهم المصبوبة في كؤوس أرواحهم اليانعة المتألقة للشهادة والكفر بالخيانات وبيع الشرف في المزادات السياسية!!

هكذا تكون شوارعنا أنظف من الشوارع كلّها على ظهر البسيطة!!!

٥٧ شوارعهم

عذراً أيها الوطن الحبيب المغتصب... عذراً يا سيدي المبجل!!

عذراً: يافا، حيفا؛ تل العفر، عكا، ناصرتنا، جليلنا، كرملنا، بحرنا، مثلثنا... فأنا لا أعترف بهم... ولن أعترف أبداً!!

شوارعهم كانت شوارعنا، وستبقى لنا... لكنها الآن مغتصبة... فعذراً أيها الرمل المدنس بخرافات توراتياتهم المدونة بعرق غرف بنات الهوى وتجارات المافيا، والتمسكن على أوهام مجازر هتلر وخزعبلات خيبر... وقبل ذلك ماسُجّل بهتاناً في صحف السبي الأول والثاني!!

شوارعهم (أي شوارعنا المغتصبة) تبدو في الظاهر أو من بره: نظافة، وحضارة، تمتلئ بديمقراطية الخمر والعري

والنخاسة والبورصات، وبنايات الدبابير الشاهقة، وورود مستوردة أو مصدرة، وجدران نظيفة، وإشارات مرور، وسيارات لمّاعة، وتلفاز يهذي بحكايات دولة العناية المركزة في غرف الضرائب الأمريكية وجدران العزل العنصرية... وشواطئ للعراة تقول هنا السياحة وهي في الحقيقة دعارة... خرافة يا سادتي دولة الموساد هذه خرافة - والله العظيم - ما بعدها خرافة!!

لوّثوا شوارعنا... فصارت شوارعهم ملطخة بالإجرام، والفضائح، وقتل الأطفال، وسفك دماء نسائنا الحوامل في شهرهن التاسع، وغزو العراق ولبنان لدفن إنسانية الحياة وطفولة الحقائق الإلهية...

شوارعهم تنمي النوويّ القاتل، وما حُرِّم من الأسلحة والفساد، وكل ما بإمكانه أن يقول لكل واحد من علوجهم: أنت نازي، ومجرم حرب، وتتري، وغاصب في فلسطين وطن الشرفاء!!

هكذا تكون شوارعهم المبهرجة في الزمن الصهيوأمريكي مجرد فقاعات وحلول ستذوب في أول شتاء حقيقي يغسل الأشياء المتسخة من بساطيرهم؛ فتعود إلينا شوارعنا، فندخلها كما دخلناها أول مرة بعد طوفان نوح - عليه السلام - الذي غسل الرمل المدنس بخطو الرذيلة، ودسّ الأفاقين المتسربلين بعنادهم وغيهم في جوف حممه!!

٥٨ مــن أنــا

أنا صوت ملحمة الوطن المغتصب... الفقراء الحيارى... الأسرى المكبلين بعشقهم... الشهداء المنيرين بدمائهم... عاشقي بنادقهم المتربصين لقراصنة الليل... أمهات الأيتام المدبرات لجنان الله على أرضه المباركة... رثاثة حقائب أطفال مدارسنا في برودة الشتاء... إنسانية الخبز المغمس بالزيت والزعتر صباحاً... كارهي النفاق وعتاة الكذب الأسود... سيد لغة العشق وفضيلة صلاة المظلومين... آكل الحلال وكاره المحرّم من كل شيء... الأكاديمي والفنان التشكيلي والأديب والصانع والبناء والمزارع والخباز وعتّال سوق الخضار... امرأة تلد عشق الأرض... كوخ يحمي ساكنيه من قيظ الشمس وأشباح الصقيع... شارع يؤمن بمعجزات الشعوب، ويلعن أفّاقي السياسة وتجار الفتن وسكان قصور الفساد...

هكذا تكون فلسطين كلها ملحمة... مهبطاً للوحي المنبعث من روائح عشق هواء الوطن ورمل بحاره وأنفاس أشجار العنب والتين والزيتون!!

هكذا يكون الوطن أنا... وتكون الشوارع ملحمة في وجه المغتصبين: أسياد الدمار... خنازير النفايات... جرذان السياسة... غربان الفضاء... بوم الغابات... مجرمي

الحرب... مغتصبي الأرض والعرض وابتسامات أطفالنا في أحضان أمهاتهم الثواكل!!

٥٩ الصورة المدنسة!!

ما أن أشاهد صورته وهو يتوعد ويهدد ويثير الفتنة والفلتان والفوضى... حتى أتعوذ من الشيطان الرجيم... تتلاصف عيناه كعيون الثعالب في جحورها!!

وجهه الأملس عنوة... ليس بأكثر من مكياجات إعلامية...!!

من يظن نفسه هذا الأفاق؟!

صار الوطن لغة فضفاضة... فامتلأت جيوبه من بيع خبز الفقراء!!

هذا القصر الفاره، وذاك الفندق المالئ للدنيا فساداً كيف بناهما؟ أشتراهما بعرق خياناته؟!

ما علينا!! ليذهب إلى الجحيم... ليلعق نفايات السمسرة... وبقايا فتات العار والخيانة!!

لكن أن يبيع دمنا... ترابنا... بحرنا... كرامتنا... عرضنا... شهداءنا وأسرانا؟!

لا... وألف لا!! لتتوقف أيها الضال في مزاريب داحس والغبراء... فأنت الداحل إلى كوابيس أحلامك... ولن تأخذ صورتك المدنسة غير الشتيمة... ولعنة الصالحين!!

عجباً، ما زال المذكور كبير مستشاري رئيس «واق الواق» في سلطة آخر أزمنة الخراب!!

٦٠ الخيانة وجهة نظر!!

لم أكن أعرف أن الخيانة غدت وجهة نظر قبل أن أقرأها في مقالة قد كتبت عنه تحديداً!!

تظاهر برفقة صديقه الصهيوني على بساط عتمة الصهيوأمريكيين... ثم حلقت بهما الطائرة إلى أجواء جنيف!!

دفعوا له مبلغاً حقيراً مع كمية كبيرة من الذل والعار ... فوقع وثيقة وجهة النظر (عفواً وثيقة الخيانة الكبرى)؛ يتنازل فيها (هذا الأحمق) عن حق اللاجئين في العودة إلى وطنهم... ولا بد من أن يُبنَى - كما يصرّح - الهيكل بجانب الصخرة... وأن تبقى لنا سلطة بلا دولة... وأخيراً أن نقبل بما يمليه علينا شارون بشأن الجدار العازل...!!

عاد يختبئ في مزاريب حرامية علي بابا كذئبة ركبتها الثعالب، خوفاً من الناس البسطاء الذين صبروا ستين عاماً... ليأتي هذا الأرعن، فيتنازل عن حقهم بالاحتفاظ بمفاتيح دورهم المسلوبة...

اختفى هذا العار زمناً... اصفرّ وجهه الميّت... لم تنقذه أموال توقيعاته الرخيصة من ذل الخيانة... لكنه فجأة صار كبير المستشارين!!

٦١ وثنية الصور

سأفتخر دوماً بأنني لا أعبد أصنامكم؟! فكيف تريدونني- أيها المتبتلون في محاريبها- أن أعبد صورها الضالة في شوارع موتي!! لا أصنام لي من حجر أو تمر أو لبِنٍ أو بقايا «بلاستيك» مهمل... حتى أذبح القرابين البشرية أمام صورها المنقوعة بفتن الغربان وخرائب البوم!!

أنا يا مضغة السواد في قلبي المجنح بالهزيمة من ثآليلكم: سيدي شهيد تنبت شقائق النعمان فوق جنانه!!وسيدتي امرأة حبلى تنجب شبلها الفلسطيني فاتحاً عينيه أو شرفتي وطني في زنازين التتار من بني صهيون!!وأمي حبة رمل في ثرى كنعانيا، ترتوي من ورقة زيتون خضراء، تُعمِّر الكون بعد أن ترتوي من مهجة قلبي!!سأفتخر دوماً بأنني لغة الحقد بعيداً بعيداً عن أصنامكم قدر بعد الثرى – وأنا الثرى – عن ثريا صوركم المزورة!!

وليعلُ هبلكم.. ولترقص له الزهرى ومناة الثالثة الأخرى... وكل الفضائيات المستباحة!! فأنا سيد نفسي... وربي هو الله سبحانه، ولغتي حصني وعشقي... وحذائي أنظف من أن يدوسها... أعني أصنامكم!!

المحتويات

القصص القصيرة

التواشج ٩
الراحلون ١٢
العنقاء تولد في دمي ٢٠
وجهي وزرقاء اليمامة ٢٦
أنا والشيء التافه المكسور ٣١
تضاريس الشيخ فياض ٤١
الليل وحليمة ٤٦
الذبابة الزرقاء ٥٠
تداعيات الهجاء ٥٧
شر البلية ما يضحك ٦٨
زجاجات عطر الموتى ٧٢
الإيغال في الزمن الموحش ٧٦
الدجاجة ٧٩
الحكاية التي نسيتها (الرواية الثالثة) ٨٢
الحكاية التي نسيتها (الرواية الثانية) ٨٩
الحكاية التي نسيتها (الرواية الأولى) ٩٢
وجوه... .... ٩٤
دعوني أعلمكم الكتابة ٩٨

وجه حنظلة ١٠٢

كنعان وجحر الضبع ١٠٥

فوق الرف ١٠٩

القصص القصيرة جداً

١ شذرات اللغة ١١٧

٢ صديقي ١١٨

٣ الجنوب ١١٩

٤ مشهد تلفازي ١٢٠

٥ مشهد واقعي ١٢١

٦ مشهد فانتازي ١٢٢

٧ همست ليلى ١٢٣

٨ بصقة أكبر ١٢٤

٩ هزيمة صغيرة ١٢٥

١٠ يمامة ١٢٦

١١ كابوس ١٢٨

١٢ كتابة المستقبل ١٣٠

١٣ الروح ١٣١

١٤ التجاوز ١٣٢

١٥ التنفس حلماً ١٣٣

١٦ أغنية الرحيل ١٣٦

١٧	سري للغاية	١٣٧
١٨	حكايةلم تعد تهمني	١٣٩
١٩	كنت	١٣٩
٢٠	قلبي	١٤٠
٢١	كآبتي	١٤٠
٢٢	تلفازي	١٤٠
٢٣	خوف	١٤١
٢٤	تعزية	١٤٢
٢٥	هروب	١٤٢
٢٦	جريمة	١٤٣
٢٧	خريف	١٤٤
٢٨	بكاء	١٤٤
٢٩	قلب	١٤٥
٣٠	مؤامرة	١٤٦
٣١	توصية	١٤٧
٣٢	غريب	١٤٧
٣٣	انتحار	١٤٨
٣٤	أحجية	١٤٨
٣٥	نكتة سخيفة	١٤٩
٣٦	لوحة	١٤٩

٣٧ عبقرية ١٥٠
٣٨ تهذيب ١٥١
٣٩ نهقة حمار ١٥١
٤٠ عذاب ١٥٢
٤١ رؤى ١٥٣
٤٢ جوع ١٥٣
٤٣ داية ١٥٤
٤٤ معركة ١٥٥
٤٥ التآكل ١٥٥
٤٦ حنونة ١٥٦
٤٧ الحوت ١٥٦
٤٨ مشاهداتي ١٥٧
٤٩ الورم ١٥٧
٥٠ الورقة الخضراء ١٥٨
٥١ أمي ١٥٩
٥٢ عبد أوسلو ١٥٩
٥٣ نبيل ونبيل ونبيل ١٦١
٥٤ الإسمنت ١٦٢
٥٥ اعتراف ١٦٢
٥٦ شوارعنا ١٦٣

٥٧ شوارعهم ١٦٥
٥٨ من أنا ١٦٧
٥٩ الصورة المنفية ١٦٨
٦٠ الخيانة وجهة نظر ١٦٩
٦١ وثنية الصور ١٧٠
المحتويات ١٧١

سيرة ذاتية

حسين المناصرة، فلسطيني، ولد في بني نعيم بالخليل عام ١٩٥٨م، وهو حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث. يكتب في مجالات: النقد الأدبي، والرواية، والقصة القصيرة، والمسرحية، والمقالة الفكرية. عضو هيئة تدريس في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الملك سعود بالرياض، وعضو في اتحادات وجمعيات أدبية وثقافية عربية عديدة؛ منها: تجمع الأدباء والكتاب الفلسطينيين، ورابطة الكتاب الأردنيين. وله إسهامات كثيرة في الملتقيات والمؤتمرات والفعاليات الأدبية والثقافية، وبخاصة الإلكترونية .

صدر للكاتب

١- فرح أنطون روائياً ومسرحياً ،عَمَّان، ١٩٩٤م .
٢- في طريقهم إلى الجنون (مسرحية) ،عمان١٩٩٤م.
٣- الرخ يعانق بروميثيوس أو دليلة تتقيأ(مسرحية)، اللاذقية،١٩٩٥م.
٤- لقاء في الفوج الأخير (قصص قصيرة)، عمان، ١٩٩٥م.
٥- التبغ واللعنة آخر ما توصل إليه عبدالله المسكين (قصص قصيرة)، عمان، ١٩٩٦م.
٦- بوابة خربة بني دار (رواية)، اللاذقية، ١٩٩٧ م.
٧- بقايا من الهذيان (قصص قصيرة) ،عمان، ١٩٩٩م .

٨- ثقافة المنهج :الخطاب الروائي نموذجاً ،حلب، ١٩٩٩م.
٩- داريا أو الحوت ينام في جوف الريموت (رواية)، عمّان، ١٩٩٩م.
١٠- الليلة الشاردة الواردة (ق. ق. جداً)، عمان، ١٩٩٩م.
١١- خندق المصير (رواية)، بيروت، ٢٠٠٢ م .
١٢- القضية الفلسطينية في الأدب المعاصر (بالاشتراك)، الرياض، ٢٠٠٢م.
١٣- المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٢ م.
١٤- النسوية في الثقافة والإبداع،إربد ،٢٠٠٧م.
١٥- أساسيات التحرير وفن الكتابة بالعربية (بالاشتراك)، الرياض، ٢٠٠٧م.
١٦- ذاكرة رواية التسعينيات، بيروت ،٢٠٠٨م.
١٧- فضاءات الكتابة، القاهرة، ٢٠٠٨م.
١٨- دليل الأدباء والكتاب في السعودية (بالاشتراك)، ٢٠٠٨م.
١٩- التنفس حلماً (ق. ق. جداً)، عمان، ٢٠٠٩م.
٢٠- وجهي وزرقاء اليمامة (قصص قصيرة)، عمان، ٢٠٠٩م.
٢١- وهج السرد، إربد، ٢٠١٠م.

الموقع الإلكتروني :

faculty.ksu.edu.sa / almanasrah

manasrah.maktoobblog.com

البريد الإلكتروني :

hosain_ma@yahoo.com

hmanasrah@ksu.edu.sa

طمسَ وجهه في كفّيه المشرّعتين دوماً؛ لاحتضان العبور إلى الهاوية البعيدة... كانت زرقاء اليمامة تهذي، أو هكذا يتصورها، بكلّ الأشياء التي تخلع بقايا براءات الطفولة وأغاني الحصادِ المشبعة بالعرق ونعناع «الشتاء»!!.

أهذه هي النهاية؟! صامتاً كحجر ملّ من مناطحة الفراغ... وهي (زرقاء اليمامة) عمياء تهذي... والغريب أنها ما زالت تهذي عن الرؤى البعيدة!؟ أية رؤى بعيدة بإمكانها أن تجعل هذا الوجه - الهارب إلى كفيه كنعامة تائهة في رمال ممتدة في صحراء توشك أن تبتلع سرابها - وجهاً أليفاً ؟!